

السنة الثانية ١٤٠٢ هـ ربيع الآخر العدد (١٣)



دَعْوَةُ الْحَقِّ
سلسلة شهرية
اربع مطبع كل شهر عربي

عَلَى مَوْلانا الْفطحية

تأليف

المسؤولين (محمد حسين)

الطهر

السنة الثانية ١٤٠٢ هـ ربيع الآخر العدد (١٣)

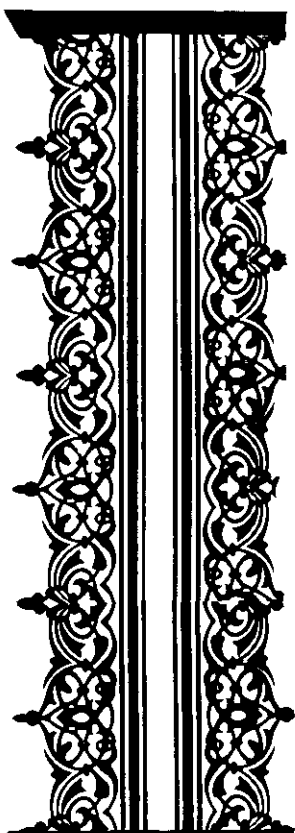


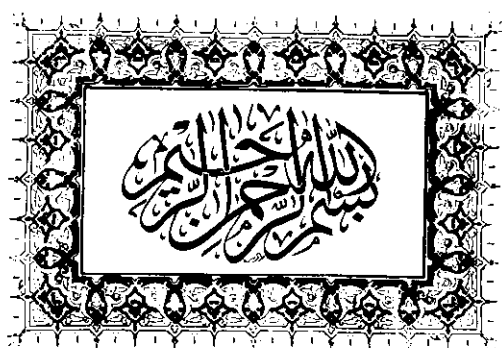
رَجْوَةُ الْحَقِّ
سلسلة شهرية
صدر مع مطلع كل شهر عربي

عَلَى الْفُطُوحِ
مَوْلَانَا

تأليف

الأستاذ حسين محمد حسيني





مقدمة المؤلف

هذا الكتاب (مولود على الفطرة) هو واحد من ثلاثة كتب للشباب والناشئة ، وضعتها في ثلاثة من أركان الإسلام الخمسة ، فكان هذا أولها وفيه أطوّف بفكر الناشئ أو الشاب - وبأسلوب قصصي ، تحرّرت فيه أنه يناسبه ويروقه ويجذبه - وعبر قصة تبدو لفهمه « عادية » السرد والأسلوب ، تُبين له كيف يصل الإنسان البدائي التجربة ، الخالي الذهن من معرفة بالله ، العامر القلب - في ذات الوقت - بالإحساس بمدلولات وجوده تعالى ، في الآيات الكونية ، وفي نفسه ، وفي المخلوقات ، والموجودات من حوله ، كيف يصل للمعرفة بخالق الكون ومنشئه ، وكيف يمكن أن يصل - بعد ذلك - إلى أسمی درجات المعرفة رهي الإيمان بالله المنعم ، والنطق بالشهادة بأن لا إله إلا الله ، وإذ ما عرف هذا عرف ذاته ومكانته في هذا الكون ، ثم عرف قدر خالقه الباري القادر المبدع ، القاهر فوق عباده ، انقباض على النواصي وعرف فضله عليه ، وما كرمه وفضله به على سائر الخلق .

والقصة تبدأ كقصّة عادية مما يقرأون ، حتى تجذب الناشئ لقراءتها ؛ « ضيع » ، و « طفل » ، و « غزال » ، و « جبال » ، حتى إذا ما شدته القصة وجذبتة وملكت كل حسه وانتباهه وتوغل في فصولها ، وجد هناك الفكر الإسلامي الإيماني الذي هدفنا أن نغذي به عقله ، في صياغة تبدو وكأنها حوار بين رجل صالح ،

وشاب بدائي لم يُقدَّر له أن يتصل بأحد من بني جنسه من ولد آدم ، ولكن الهدف من الحوار - في حقيقة الأمر المقصود به - ابننا - الشاب أو الناشئ ، الذي أهملته أجهزة التحقيق ، والإعلام ، وتركته نهياً للسلسلات والأساطير ، والقصص الفارغة المحتوى الحالية من المضمون ذي القيمة الدينية أو الخلقية ، علّنا بذلك نضعه في مواجهة الفكر السليم إذا كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قال صلى الله عليه وسلم : « لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها » .

والله الموفق لما فيه الخير . .

المؤلف

مقدور وعناية

وقف الضَّبَع الأرقط ، في وسط الوادي ، وأخذ يتلفت حوله ، ويركّز عينيه حيث يقع بصره ، كأنما يحاول أن يحترق بهما ذلك الظلام الدامس ، الذي كان يغطي الوادي جميعه في تلك الليلة الحالكة الظلمة .

كان الضبع جائعاً ، جوعاً زاد من توحّشه وتلهّفه للانتراس ، فكان يرفع أنفه بين اللحظة والأخرى ، يتشمم رائحة في الهواء ، كانت تثير شهيته ، وتكاد تفقده صوابه ، ، فالريّح التي كانت تأتي من الشمال كانت تحمل إليه رائحة الأغنام والإبل ، فتريد من شرهه ، ومن جوعه ، وحاسة الشم لدى الضبع الأرقط لا تكذبه أبداً ، إنها فعلاً رائحة أغنام وإبل تلك التي كانت تحملها إلى أنفه الريح ؛ فإن بعض البدو الرّحل كانوا يسرون مبتعدين مع أغنامهم في تلك اللحظة ، متجهين نحو الشمال ، بل لأنهم لم يكونوا يبعدون عن المكان الذي يقف فيه الضبع الأرقط بأكثر من ربع الفرسخ تقريباً .

كان الرّعاة من البدو الرّحل يغدّون في السير إلى جهة الشمال ، حتى يقطعوا مسافات طويلة ؛ مستغلين برودة الليل ، وهواء النديّ .

ولنعد ثانية إلى الضبع الأرقط ، تُرى ما الذي جذب به إلى هذا المكان بالذات . . ؟ !

لقد جذبته الرائحة أيضاً ، فقد حملت له الريح من هذا المكان
- وهو في أعالي الجبال - رائحة الأغنام والإبل .

وكما ذكرت ، فحاسة الشم عند هذا الضبع الأرقط لا تكذبه ،
إذ أن هؤلاء البدو المتجهين جهة الشمال كانوا بالفعل يضربون
خيامهم هنا في هذا المكان ، منذ الصباح ، حتى غروب الشمس ،
وقد استسلموا جميعاً للراحة والرقاد استعداداً للرحيل في هدأة
الليل ؛ وتلك هي عادة البدو الرحل ، يسرون مرتحلين الليل
كله بأغنامهم وإبلهم التي تركب على ظهورها النساء مع أطفالهن ،
بينما يمشي الرجال أمامها ؛ وهكذا يمشون الليل كله سائرين وقد
اكتسبت أجسامهم قوة وحيوية ونشاطاً ، يتبعون الدليل الحادي
الذي يسير أمام القافلة وهو ينشد الأناشيد الجميلة التي تصل إلى
الآذان مع هدأة الليل عذبة صافية .

فإذا ما أشرقت الشمس ، وسلطت أشعتها المحرقة على الأرض
توقفوا عن السير ، وأنخوا إبلهم عند موقع قريب من الماء ،
يتوفر فيه المرعى لماشيتهم .

وما أن يحيطوا رحالهم في المكان الذي يختارونه ، حتى يأخذ
فريق من الرجال في ضرب الخيام ، في حين يقوم فريق آخر
بجلب الماء ، وأداء بعض الأعمال الأخرى للمجموعة ، بينما
يتولى الأولاد والبنات مراقبة الماعز والإبل وهي ترعى ، وتقوم
النساء بتهيئة المكان وجلب حطب الوقود ثم يعملن في طهي الطعام ،
حتى يتناول الجميع وجبة الصباح .

بعد أن يتناول الجميع وجبة الصباح ، يخلدون للراحة ،
ما عدا القليل منهم الذين يتولون مراقبة الأغنام وحراستها .

إذن فالضبع الأرقط لم تخدعه حاسة الشم ، فقد كانت الماشية هنا قبل ساعات مع رُعَاتها ، كانوا هنا قبل حلول الظلام ؛ فرائحة الماشية التي لا تخفى على الضبع ، ولا يخطئها أنفه ، ما زالت تملأ المكان .

ورفع الضبع أنفه في الهواء مرة أخرى وأخذ يتشمم ؛ إن الرائحة ضعيفة ، إذن ... فالقطيع الشهيق قد ابتعد كثيراً ...

وأطلق الضبع عواءً حزيناً يائساً ، بصوت حاد ، ردّدت صداه الجبال البعيدة . . وصمت الضبع فجأة ، فقد وصل إلى أذنه في تلك اللحظة صوت رقيق متصل ، كان ينبعث من مكان لا يبعد كثيراً عن الموضع الذي يقف عنده الضبع .

صمت الضبع وتوقف عن العواء ، ووصل إلى أذنه —عندئذ— عواء ضبع آخر من مكان قريب ، لعله هو الآخر جاء وقد جذبته تلك الرائحة .

أما ذلك الصوت الرقيق المتصل فكان ما يزال يصل إلى سمع الضبع ، والضبع لا يدري عنه شيئاً .

تقدم الضبع نحو مصدر الصوت ، وازداد لمعان عينيه ، وبريقهما وهما تحترقان الظلام ، كان يمشي في سرعة وحذر ، حتى اقترب من موضع الصوت ، وحينئذ رأى أمامه على البعد شيئاً يتحرك ، وأجفل الضبع في أول الأمر ولكن غريزته العدوانية والجوع الذي كان يسيطر عليه في تلك اللحظة جعلاه يندفع نحوه لا يلقى على شيء .

وتوقف الضبع قريباً من ذلك الشيء ، وأخذ ينظر إليه بشره ووحشية ، ولم يكن ذلك الشيء غير طفل يبلغ من العمر سنتين

تقريباً ، أو أقل قليلاً ، كان يرقد على الأرض ويحرك يديه ورجليه من غير انقطاع ، وهو يصرخ بدون توقف .. وكان الضبع ينظر إليه وقد أصابه بعض الخوف من ذلك الصوت الغريب الذي لم يكن قد سمع مثله من قبل .

وسكت الطفل فجأة حينما أحس بأن هناك من يقف قريباً منه ؛ ولعله اعتقد أن هذا المخلوق هو أمّه أو مُرضعته ، اللتان كانتا في تلك اللحظة في مكان بعيد ، ضمن القافلة ، وكانت كل واحدة منهما تعتقد أن الطفل لدى الأخرى .

سكت الطفل فجأة ، فتشجع الضبع ، ووجه أنيابه الحادة نحو أمعاء الطفل مباشرة ، وهجم ، فاصطدمت أنيابه بجلد متين ، كانت والدّة الطفل قد لفّته به استعداداً للسفر والرحيل ، خوفاً عليه من برد الليل ، بعد أن اعتمدت على المُرّضعة في حمله معها .

اصطدمت أنياب الضبع بالجلد ، وانطلقت من الطفل في نفس الوقت صرخة حادة ، أخافت الضبع وجعلته يجفل ، ويتراجع عدة خطوات للوراء ، وحينئذ سمع صوتاً لوقع خطوات ضبع آخر يقترب من فريسته ، في الظلام ، فترك الطفل لفترة وكشّر عن أنيابه بشراسة ، وتحفّز للملاقاة الضبع الذي كان قد اقترب كثيراً من الطفل ، انملق على الأرض .

وقفز الضبع الأرقط مهاجماً الضبع المتطفّل الدخيل ، الذي كان أضخم منه حجماً ، وأشدّ قوة وبأساً .

ونشب معركة مفاجئة بين الضبعين ، وعلا صُراخ الطفل ، وزاد فزعهُ وخوفهُ . . وحمي القتال بين الوحشين ، وتقهقر

الضبع المهاجم ، وتعثر في تفهقره ، وكاد يسقط على الأرض ،
وانتهز الضبع الآخر الفرصة ، فحمل الطفل بين أنيابه ، وأخذ
يعدو به متجهاً صوب الجبال ، بينما استعاد الضبع المهاجم
ثباته ، وتمالك قوته ، فأخذ يعدو في إثره .

وسكت الطفل عن البكاء ، وقد تملكه - في أول الأمر -
رعب قاتل ، وهو لا يعلم شيئاً مما يدور حوله . إذ أحسّ فجأة
أنّه اختُطف بعنف من على الأرض ، وأنه يتدلى من اللقافة
الجلدية ، وقد أمسك بها الضبع بأنيابه القوية ، وأخذ يجرى به .

بلغ الضبع الأرقط سلسلة الجبال التي كانت تحيط بالوادي ،
وعندها توقف قليلاً حتى يستجمع أنفاسه ، وحتى يراقب مطارده
الضبع الآخر ، ثم أخذ يعدو صاعداً الجبل ، وقد أحسّ أن
مطارده يقترب منه .

أما الطفل المسكين ، فقد أغشى عليه من فعل الهزة العنيفة ،
واصطدامه أحياناً بساقي الضبع الأماميتين وصدرة القوي .

ومضى الضبع صاعداً الجبل وهو يحمل الطفل بين فكّيه ،
وكان كلما فكّر في التوقف عن الجري لالتقاط أنفاسه ، أحسّ
بقرب مطارده منه ، وسمع صوت عوائه ، فحثّ خطاه
صاعداً إلى قمة الجبل الشاهق ، وقد حمل اللقافة بين أنيابه ،
والطفل بداخلها فاقد الوعي .

حينما وصل الضبع الأرقط إلى أعلى الجبل وهو يحمل الطفل
بين أنيابه ، وجد عند قمة الجبل مجموعة كبيرة من الضباع في
انتظاره ، وما أن وقعت أعينها عليه ، ورأت تلك الفريسة
التي يحملها بين فكّيه ، حتى هجمت عليه دفعة واحدة ، كل

ضبع منها يُريد أن يفوز بالفريسة التي يحملها الضبع المُرْقَط بين فكيه .

وبدأت المطاردة بين الوحوش الضَّارية الجائعة على قمة الجبل الضيقة ، التي كانت مساحتها لا تزيد عن مساحة غرفة صغيرة .

الوادي الأخضر

كان الجبل الذي دارت فوق قمته معركة الضَّبَاع شاهق الارتفاع ، ينحدر جانبه الذي يقع إلى جهة الوادي انحداراً خفيفاً بمكِّن الضباع وصغار الحيوانات من صعوده ، وكان يقف في قبالة ذلك الجبل من الجهة الأخرى جبلٌ آخر يشبهه تمام الشبه في تكوينه لعلّه نصفه الثاني ، أو شقّه الآخر ؛ فجانِب هذا الجبل والجانب المقابل له من الجبل الآخر متشابهان ، يقفان قبالة بعضهما كأنهما جداران ، ليس بهما أي نتوء أو بروز ، كما لو أنهما كانا جبلاً واحداً ، ثم شق بسكين كبير حاد ، ثم أبعد كل شق منهما عن الآخر ، أما المنطقة التي تكوّنت بين شقي الجبل ، وفي قاع تلك الهاوية السحيقة فكانت عبارة عن أَيْكة غناء ، تسقط عليها المياه من أعالي الجبال ، فتروي أرضها ونباتها ، وتحيلها إلى جنة مُخضرة ، مليئة بالنباتات الصغيرة المورقة ، على مدى فصول العام ، تتخللها أشجار الفاكهة ، المحملة بالثمار الشهية ، ويجري فيها نهر صغير ، تُغذيه عينٌ تنبع من أعلى أحد شقي الجبل ، وينحدر ماؤها عذباً صافياً ليجري خلال الأيكة ، شاقاً لنفسه أخلوداً معرجاً كتعرج الثعبان في مشيه ، وتسد جنبات ذلك الوادي صخور كبيرة الحجم ، تغطيها أشجارٌ

ضخمة عملاقة ، وهي دوماً مورقة ، متشابكة الأغصان ، وقد ارتفعت إلى علو هائل ، حتى أصبح ذلك الوادي الصغير وكأنه حديقة عامرة بكل ألوان الجمال ، مغلقة ، لا تدخلها إلا الطيور ، تأتيها من أعالي الجو ، فتتوالد فيها وتسكنها بعض صغار الحيوانات التي وجدت في ذلك المكان مأمناً لها من الوحوش الضارية ، التي لا تجد سبيلاً إلى اقتحامه والدخول إليه .

دارت المعركة حامية بين الضباع ، كل واحد منها يريد الفوز بذلك الطفل ، الذي كانوا يرون فيه الوجبة الشهية ، والعشاء المشبع اللذيذ .

وضيقت الضباع الخناق على الضبع الأرقط ، وأخذت تنهشه من كل جانب ، حتى أعياه الدفاع عن نفسه ، وأُثنى جسده بالجراح ، وكان يعلم - بغريزته - ما ينتظره ؛ فالضباع ما أن يصاب أحدها بجرح ، فيندف منه الدّم ، حتى تعدّه بقية الجماعة فريسة لها وغنيمة ، فتقضي عليه ، وتنهش لحمه ، وتفري عظمه ، وتتخذ منه وليمة عظيمة ؛ فالضباع لا ترحم حتى واحداً منها إذا اشتمت فيه رائحة الدّم .

كان الضبع الأرقط يعرف كل هذا بغريزته ، فأصبح يدافع عن نفسه ، وعن فريسته التي يحملها ، وحاول أن ينجو ، فاقترّب من حافة الجبل ، ووقف مكشراً عن أنيابه ، متحفزاً للدفاع عن نفسه ، أما بقية الضباع ، فقد وقفت في قبائله ، تنظر إليه ، لا تغفل أعينها عنه ، تنتظر اللحظة التي يغفل فيها لتهاجم عليه هجمة واحدة تقضي بها عليه ، وتختطف منه فريسته .

وأحسّ الضبع الأرقط بالخطر ، وعلم أن حياته أصبحت

مهدة ، وأنه قد يصبح بعد لحظات طعماً لأصدقائه الضباع ، ففكر في التخلص من فريسته ، والتخلي عنها ، إلى حين ، وقرر أن يفرغ فمه أولاً حتى يتمكن من الدفاع عن نفسه بكل قوته ، وبكافة أسلحته . فاقترب من حافة الجبل ، ثم حنى رأسه ببطء شديد ، وأسقط اللقافة التي بها الطفل على الأرض ، وجعلها خلفه .

وتحركت الضباع نحوه ، مضيقّةً عليه الدائرة ، وخطأ هونحوها مكشراً عن أنيابه تاركاً الطفل في لقافته خلفه على الأرض . عند طرف الجبل ، عند حافة الهاوية السحيقة .

وكشّرت الضباع عن أنيابها ، وأصدرت أصواتاً وحشية ، وهجمت قافزة على الضبع الأرقط ، حتى تفتّرسه ، فخاف الضبع الأرقط ، وأحس بأنه يواجه الموت ، فراجع إلى الوراء - فجأة - وقد أصابه فزع شديد ، تراجع عدة خطوات سريعة مضطربة ، ورفس بقدمه الخلفية الطفل في لقافته ، فتدحرجت اللقافة ، وبدخلها الطفل ، وسقطت في الهاوية ، بين شقيّ الجبل ، حتى استقرت في الوادي الأخضر ، وكان سقوطها على أكمة مخضرة ، غزيرة النبات ، طرية الحواشي ناعمة .

في الوادي الأخضر

أشرقت شمس اليوم التالي على الجبل والوديان ، وأضاءت بنورها ، فاستبان على ضوءها مجموعة العظام على قمة الجبل ؛ تلك العظام هي كل ما تبقى من الضبع الأرقط ، الذي كان يعني نفسه بعشاء طيب لذيد - هو الطفل الذي نسيه أهله في قلب الوادي - فإذا هو نفسه يصبح عشاء وفيراً لإخوانه الضباع .

أما الطفل ، فقد شاءت إرادة الله أن يسلم من كل أذى ،
بعد أن هبأ الله له من لطفه — ذلك الفراش اللين الوثير ، تلك
الأكمة الغزيرة النبات ، التي سقط عليها ، ولم يشعر — حتى —
بسقوطه ، إذ كان قبلها في غيبوبة بسبب ما جرى له من الضبع
الأرقط ، ورفاقه الضباع الآخر .

أفاق الطفل من الغيبوبة على لسعات أشعة الشمس على جسده
الضعيف الغض ، وكان جائعاً ، فأخذ يبكي ويصرخ ، وقد كان
المسكين حتى الأمس إذا بكى ، أسرع نحوه أمه الشفوقة ،
ومدت إليه يدها الحانية تطعمه وتسقيه ، وتهدهه وترعاه ،
أما في هذا الصباح ، فقد بكى ، وطال بكاءه ، وصرخ ، وعلا
صراخه ، ولكن ما من مجيب .

وتعب الصغير من البكاء ، فخفت صوته ، ويش من
وجود أمه أو مرضعته بجواره ، فأخذ يبكي بصوت أبح خافت
فترة ، ثم يصمت فترة أخرى ، ويلفت حوله في فزع واضطراب ،
وقد تملكه — مع الخوف — العجب مما يرى ، ينصرف نظره
إلى الأشجار الباسقة العالية حوله ، ثم يتحول بنظره إلى جهة
النهر الذي يجري بالقرب منه وإلى مائه الجاري ، وقد فتح
عينيه عن آخرهما ، قد بهرته خضرة الأرض حوله ، وتلك
الألوان التي لم يعتد بصره على رؤيتها ، يتأمل كل هذا بكل
حواسه ، في هدوء تام ، ثم لا يلبث أن يلفت نظره سقوط ثمرة
من ثمار الشجر على الأرض ، فيبدد ذلك هدوءه ، ويلتفت ناحية
سقوطها فزعاً ملتاعاً .

مضى وقتٌ طويلٌ على الطفل الذي أراد له الله — سبحانه

وتعالى — أن يعيش ويحيا ، فحفظه من أنياب الضبع الأرقط ،
حينما حمله بين فكَّيه ليأكله .

وحفظه من الضباع الجائعة ، على رأس الجبل ، حينما
تناوشته ، كل واحدٍ منها يريد أن يملأ به معدته الخاوية ، ويشبع
به جوع بطنه .

حفظه الله تعالى — أيضاً — حينما سقط من ذلك العلوّ
الشاهق ، من أعلى قمة الجبل ، إلى قاع الهاوية ، فهيا له أكمةٌ
مورقةٌ ، وفرشاً ليناً « فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحمُ الراحمين » ،
وقد حفظ تبارك وتعالى ذلك الطفل من كل تلك الشرور
والمهالك ، فكان محفوظاً — دوماً — بلطف الله القادر ، ورعايته ،
لذلك فقد رأينا أن نطلق عليه اسم « محفوظ » ، علماً عليه ،
نعرّفه به ، فهو لا يعرف لنفسه إسماً .

مضى وقتٌ طويلٌ على (محفوظ) وهو على تلك الحال ،
يبكي تارة ، ويصمت تارةً أخرى ، فيتلفت حوله متعجباً
مندهشاً خائفاً ، وازدادت حرارة الشمس فألمت جسده وعينيه ،
وكان جسده عارياً ، إذ أن قطعة الجلد التي كانت أمه قد لفتته
بها قد سقطت بعيداً عنه عندما سقط على تلك الشجيرات التي
تكوّن الأكمة .

وتألم جسد محفوظ الصغير ، وازداد جوعه وعطشه ، وهم
بالبكاء ، ولكنه عاد وتذكر أن البكاء لم يفدهُ ولم يجلب له
العون والمُساعدة كما اعتاد في الماضي ، فحاول الوقوف ، وكان
قد تعلم الوقوف ، والمشى على قدميه منذ أشهر قليلة ، فلما

وقف عاقته بعض فروع النبات ، فسقط وهم بالبكاء مرة أخرى ،
ومرة أخرى تذكر أن البكاء لا يجلب له معونة أحد .

وقام (محفوظ) واقفاً على قدميه ، فسقط مرة أخرى ، وقام
ثم تقدم خطوتين وهو يطاءً بقدميه الصغيرين نباتات الأكمة ،
وعاد فسقط ، وسكت ، وقام فوقف على قدميه ، وخطا فوق
النباتات حتى وصل إلى الأرض الثابتة ، المكسوة بالأعشاب ،
ومشى خطوات وهو يتعثر - في أول الأمر - ثم اعتدل خطوه
وسار في خط مستقيم نحو شجرة كبيرة ، ظليلة ، من أشجار
الفاكهة ، روقف في ظلها ، فأحس بالراحة ، ولكن الجوع
كان قد بلغ منه مبلغاً عظيماً ، وبغريزة الطفل ، التقط ثمرة من
ثمار تلك الشجرة - وكان الكثير من تلك الثمار قد سقط على
الأرض - فتناول منها واحدة ، وأخذ يقضم منها بسهولة ويسر ،
فقد كانت هشة طرية ، حلوة الطعم ، ففرح ، وجلس على
الأرض ، وتناول منها ثمرة أخرى ، وثالثة ، ورابعة ، وكان
يأكل في نهم شديد .

ولكنه توقف عن الأكل فجأة ، وسقطت الثمرة من يده ،
فقد شاهد - من بعيد - شيئاً يتحرك بين الشجيرات الصغيرة .

وأحس (محفوظ) بالفرح أولاً ، ثم بالخوف ، ثم عاد
فاستأنس بوجود مخلوق حيٍّ معه في ذلك المكان .

ومضت لحظات . . فتبين (محفوظ) ذلك الشيء . . لم
تكن هيئة ذلك المخلوق غريبة عليه ، فكثيراً ما رأى شبيهه ،
بل أنه كان يشاهده في كل يوم ، . . مخلوقٌ يمشي على أربعة
أرجل !! ليس هذا بغريب عليه . .

والحقيقة أن ما رآه (محفوظ) لم يكن غير غزال خرج من الأحراش ، ولكن لشبهه بالأغنام والحراف فإن الصغير لم ترعجه رؤيته ، بل استأنس به ، وفرح .

وقام (محفوظ) من مكانه مسرعاً ، ليلحق بالغزال ، وكان الغزال - في تلك اللحظة - قد اتجه نحو النهر الصغير ، وأخذ يشرب من مائه .

وتقدم (محفوظ) نحو المكان الذي كان يقف الغزال عنده ، بقرب النهر ، والتفت الغزال نحوه ، وبدا التعجب في حركاته ، ولفتاته ، واستغرق فترة يطالع في هذا المخلوق الذي يراه لأول مرة ، ثم أجفل فجأة ، وجرى حيث اختفى في الأحراش .

أما (محفوظ) فقد تعلم من الغزال درساً مفيداً ، وأضاف إلى خبراته القليلة خبرة جديدة ، وهي أنه يمكن للمرء أن يشرب من مجرى الماء بدون إناء ، فتقدم نحو النهر ، وبرك على ركبتيه واعتمد على يديه ، واتخذ هيئة كهيئة الغزال ، ثم وضع فمه على الماء ، وأخذ يرشف منه ، ويشرب - تماماً - مثلما فعل الغزال قبل قليل .

أحس الطفل المسكين (محفوظ) بالنشاط يدب في جسده ، بعد أن ارتوى من ماء النهر العذب ، وتلفت ينظر حوله ، يبحث عن الغزال مرة أخرى ، فلما لم يجده ، مد بصره ينظره بين الشجيرات حيث ذهب الغزال .

وبفطرة الطفل الساذج ، تقدم (محفوظ) ، وأخذ يمشي بين الأحراش ، بحثاً عن الغزال ، الذي مضى قبل قليل ، في الطريق ذاته ، وكان يمشي على الحشائش الخضراء ، يطأها

بقدميه الصغيرتين الخافيتين ، محترقاً الشجيرات الصغيرة ، يتبع الغزال الذي رآه منذ قليل ، يسلك ذلك الطريق ، ويمشي إلى داخل الأحراش .

وكان الصغير يتوقف عن المشي كلما شاهد فراشة تطير بالقرب منه ، تنتقل من زهرة إلى زهرة ، أو رأى حشرة تدب على الأرض بين الحشائش ، أو طائراً يطير من فرع إلى فرع . كان يقف وقد نسي تماماً أمر الغزالة التي يتعقبها ، إلى أن وجد نفسه عند أكمة مخضرة ، ترقد عندها بعض الغزلان .

فرح الطفل (محفوظ) ، وجرى نحو الغزلان ، ففزعت منه ، وارتبكت ، وفرت ، إلا واحدة منها ، وكانت تلك الغزالة التي لم تفر ترقد ، ويرقد معها وليدها الصغير ، يرضع من ثديها ، لعلها لم تشأ أن تتحرك حتى لا تزعج رضيعها .

ابتسم الطفل في براءة ، وتقدم نحو الغزالة المرضع ، حتى جلس بالقرب منها ، وأخذ يداعب وليدها الصغير ويلاعبه . وترك ولد الغزالة ثدي أمه ، وأخذ يلعب يدي (محفوظ) بلسانه ، أما (محفوظ) فقد سرته تلك المداعبة ، فأخذ يضحك في براءة شديدة .

مضى وقت طويل ، والطفل والغزال الصغير يتداعبان ويتلاعبان ، وفجأة هبت الغزالة الأم واقفة ، وأخذت تمشي ، فتبعها وليدها ، وتبعهما (محفوظ) الصغير .

ظلت الغزالة الأم سائرة ، يتبعها ابنها الصغير ، يسيران في الوادي الأخضر ، ينتقلان من مكان إلى آخر ، وكان محفوظ

الصغير يتبعهما يتعثر - أحياناً - فيسقط على الأرض ، ثم يهب واقفاً فيواصل السير خلفهما مسرعاً ؛ لم يتخلف عنهما لحظة واحدة ، فإذا بلغوا أرضاً ذات ثمار ، تناول (محفوظ) منها ، وأكل .

وعندما مالت شمس ذلك اليوم نحو المغيب ، واتجهت الغزالة الأم ووليدها إلى منطقة ذات أشجار غزيرة - عند طرف الوادي - تبعهما (محفوظ) إلى هناك ، وهو لا يدري لماذا تتجه الغزالة الأم نحو ذلك المكان .

ما إن بلغ (محفوظ) ذلك المكان مع الغزالة ووليدها حتى كانت الشمس قد غابت تماماً ، وبدأ ضوء النهار يخفّض ويتلاشى عن الوادي ، فرقدت الغزالة الأم على الأرض بين الحشائش ، ورقد وليدها بالقرب منها ، بعد أن تناول ثديها - بين شفّتيه ، وأخذ يرضع منه حتى نام ، أما محفوظ فقد استوحش في باديء الأمر ، إذ افتقد أمّه ، وافتقد حنانها ، وهددها له - عند النوم - وهم بالبكاء ، ولكنه تذكر من تجربته في ذلك اليوم - أن البكاء لا يجدي ، فاستسلم ، ورقد على الأرض ، بالقرب من الغزال الصغير ، وأخذ ينظر فيما حوله ، ثم نام .

وقبل أن يحل الظلام تماماً ، لجأ إلى ذلك المكان عدد آخر من الغزلان ، ولعل ذلك المكان كان هو المأوى المفضل لمبيئتها ، كانت الغزلان تأتي إليه جماعات وفردى ، فرقد على الحشائش ، وتنام هناك .

أما (محفوظ) فقد شغلَ بتلك الغزلان فترة ، ثم سرعان ما استغرق في نوم عميق ، فقد كان جسده الصغير مُتعباً بسبب المسافات الطويلة التي مشاها على قدميه - أثناء النهار .

نام (محفوظ) نوماً عميقاً ، لم يستيقظ منه إلا عند الفجر ،
فأخذ يتلفت حوله ، وقد سره منظر الغزلان النائمة حوله ،
فشغل بها مرة أخرى .

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى استيقظت الغزلان الواحدة تلو
الأخرى ، ثم تجمعت في مكان واحد ، وسارت في سربٍ
تبحث عن المرعى الطيب والماء .

وتبَّعَ محفوظُ الغزلان ، وسار معها يبحث هو أيضاً عن
الثمار ليأكلها ، وعن الماء ليشرب منه . وظل طوال يومه يسعى
مع ذلك القطيع من الغزلان ، يسير معها إذا سارت ، ويستريح
إذا استراحت تحت ظلال الأشجار ، ويرد معها الماء إذا وردت
الماء ، فيشرب مثلما تشرب هي ، ثم يصدر معها .

أما الغزلان ، فقد اعتادت على وجود ذلك الطفل الآدمي
بينها ، فلم تعد تنفر منه أو تخاف .

مضت الأيام في الوادي الأخضر على (محفوظ) وهو يتبع
جماعة الغزلان ، يسير حيثما سار القطيع ، يرعى معه في مراعيه ،
يقبل إذا قالت الغزلان ، ويصحو إذا صحت . يقضي كل
نهاره مع تلك المجموعة من الغزلان ، يسرح معها في الوادي ،
ويمرح ، ويمجري مع الصغار منها من أترابه ، ويتسابق معها معظم
النهار حتى اكتسب مهارة عجيبة في الجري ، وسرعة فائقة
في العدو ، فكان يسبق بعض صغار الغزلان - أحياناً - ويتفوق
عليها في العدو . فإذا جنَّ الليل ، وأوت الغزلان إلى أماكن
تعرفها بغريزتها للمبيت أوى معها ، ولجأ إلى تلك الأماكن ،
فنام بين أفراد القطيع ، وكأنه واحدٌ منه ، وقد نسي كل

ما كان بينه وبين أمّه أو مرضعته ، بل نسي كل علاقة له
ببني الإنسان ؛ وقد ساعد على ذلك صغر سنّه ، وقصر
الزمن الذي أمضاه بين أهله من بني البشر ، وسرعان ما انمحت
من عقله صورة الإنسان ، ولم يعد يذكر له شكلاً ، بل أصبح -
وقد مضى عليه عامان في الوادي الأخضر - لا يعرف له أصلاً ،
ولا أهلاً ، ولا يعرف لحياته مبدءاً ، إلا ذلك القطيع من الغزلان
ولا يعرف من الدنيا أرضاً ، إلا ذلك الوادي الأخضر ، الذي
يحدّه شقاً الجبل ، وتسد جنباته الصخور العالية ، والأشجار
وارفة الظلال . وقد سكن في روعه ، واستقر في عقله أن ما حوله
هو العالم كله ، وأن ليس هناك سواه ، فحكمه قد أصبح حكم
البهيم الذي اكتفى من دنياه بما وجده من ثمار فأكلها ، وماء
فشربه ، وعشيرة هي قطيع الغزلان فألفه ، وأنس إليه ،
وشاركه كل دقيقة من دقائق وجدانه ، فقد كان (محفوظ)
بهمهم بمكنون نفسه ، ليعبر عما يحسّه من خوف أو ألم ،
أو جوع ، مثلما تفعل الغزلان ، وكان القطيع يستجيب لاهتمامات
(محفوظ) مثلما يستجيب لأي فرد من أفراد القطيع من الغزلان .
وكان هو بالمثل تصل إلى أذنه تلك الاهتمامات ، ذات التنعيم
والإيقاعات المختلفة المتباينة ، فيفهمها عقله ، وتستجيب لها
عواطفه ، فيلبي ، ويحنو على الواحد من أفراد القطيع أو يحميه ،
أو ينجده ، كما تفعل الغزلان بعضها مع بعض .

لم يشك (محفوظ) يوماً في أنه واحد من هذا القطيع ،
أو أنه ليس فرداً من أفرادها ، إلى أن بلغ عمره السادسة :
وعندها بدأت تتفتح مداركه على بعض حقائق الحياة ، وبدأ
عقله الإنساني يميز له بعض الشواهد ، والمظاهر الملموسة ؛

فقد لاحظ أن جسده ليس كأجسام تلك العشيرة من الغزلان ،
فجسمه لا يكسوه ذلك الوبر الحشيش الملمس ، ورأسه ،
وعيناه ، وأذناه . . كل تكوينه ليس كتكوينها ، ولا مشبه
كمشبهها .

واستشعر محفوظ الغربة بينها ، ولو أنه لم يحس بالنفور منها ،
فهي العشيرة ، وهي الجماعة والأهل ، هي القطيع الذي نشأ
فيه ، وترعرع بين أفرادها .

قضى محفوظ — بعد ذلك — أياماً وليالي طويلة وقد أهمته
هذا الأمر ، وشغل عقله الصغير ، وإن لم يُفارق القطيع في
روحاته وغدوانه ، ولم يبتعد عنه لحظة واحدة ، بل كان يشعر في
قرارة نفسه — وعلى الرغم مما يدور في عقله ، وما استقر في
وجدانه — أنه لا ملجأ له إلا هذه الجماعة من الغزلان ، ولا أهل
له إلا هي ، ولا مأوى إلا حيث تأوي ، ولا حياة له إلا في
معيتها ، ولا صُحبة له في هذا الوادي الفسيح إلا صُحبته .

ومضى عامٌ ، وبلغ (محفوظ) السابعة من عمره ، ونيقن
— حينئذ — أنه ليس واحداً من تلك الغزلان ، ولكنه — في
ذات الوقت — أحس نحوها بحب جارف ، وامتنان زائد ، تلك
المجموعة التي آوته وضمته إليها ، وقبَلته بينها على الرغم
من أنه دخيل عليها ، أما أنه غريب على تلك المجموعة فهذا
ما لم يعد يشك فيه ، بعد أن استقام عوده ، وقوى ، وأصبح
له قوامٌ بعيد الشبه عن ذوات الأربع ، التي ألقت شكله ،
وهيئته ، جيلاً بعد جيل ، فلم تعد تطبق فراقه ، ثم ازداد عطفه
نحو المجموعة إذ بدأ يحس بقوته ، وقدراته ، ومهاراته ،

وما يمكن أن يفعل بيديه من أعمال تعجز الغزلان عن فعلها ،
 فغاية قدرتها العدو السريع ، وهو لا يقل عنها في سرعة العدو ،
 فصار - وله عقل الإنسان - الذي لا يقاس بعقول الحيوان -
 صار يساعد جماعة الغزلان بكل ما هيا الله له من عقل ذكي ،
 ومهارة ، حتى أصبح زعيماً لقطيع الغزلان ؛ يسير في المقدمة
 من القطيع ، يحمل الصغار منها بين ذراعيه ، تتبعه الأمهات ،
 ثم باقي القطيع ، ولا ينقطع التفاهم بينه وبينها بهمهمات هي
 ما يعرف من لغة ، يسير ، يتبعه القطيع ، مُسَلِّماً له بالقيادة
 أينما سار ، وحيثما اتجه ، فقد أصبح - كما لو كان واحداً
 منها - يعرف مكان المرعى الطيب ، ويعرف متى يَرْدُ
 بالقطيع الماء ، ومتى يصدر به عنه ، ومتى يبدأ المسير نحو أوكار
 المبيت الآمنة ، ومتى يستيقظ مع القطيع عند الصباح .

وهكذا مضت الأيام (بمحفوظ) ، كل يوم يؤكد له
 حقيقة أنه ليس من جنس هذا القطيع ، ولكن - في ذات الوقت -
 يؤكد له حبه وتعاطفه وانتماءه لهذه المجموعة من المخلوقات
 الوديدة المسالمة ، يحس بما تحس به ، ويتألم لما تتألم له ، ويسعد
 بما تسعد ، فلم يكن يقلُّ عنها صفاء نفس ، وميلاً للسلام
 والهدوء ، فهو ما زال على الفطرة ، لم تخذش نفسه الصافية
 فعلة شر من فعال البشر ، أو تستقر فيها صفة من صفاتهم السيئة
 من حقدٍ ، أو أنانيةٍ ، أو - حتى - غضبٍ .

مضت الأعوام بمحفوظ ، وهو في الوادي الأخضر ،
 كلما ازداد جسمه قوةً ، واكتسب عقله فطنة وإدراكاً ،
 كلما بذل ذلك كله لصالح جماعة الغزلان ، التي نشأ بينها
 وترعرع ، وكان يشعر نحوها شعور الابن البار نحو أهله

وعشيرته ، وكان يبذل كل جهد من أجلها ويسخر كل طاقته
وقدرته ومهارته لخدمتها .

وبلغ الصغير العاشرة ، وبدأت تجيش بنفسه أفكار عجيبة ،
غريبة عليه ، إذ بدأ يحس - في بعض الأحيان - بميل نحو
التحرر من تلك الحياة الرتيبة ، التي تسير على منوال واحد .
مرعى ، ونهر ، ومبيت . ثم استيقاظ ، فمرعى ، فشرّب
من ماء النهر ، فمرعى وقيلولة ، ومرعى ومبيت .

ناقت نفس (محفوظ) للانطلاق ، والبحث في خبايا
بعض جوانب الوادي ، وأخذت بعض الأسئلة تجول في عقله
بالحاح ، ماذا هناك عند الصخور البعيدة العالية ؟ ماذا لو أنه
صعد تلك التلة وانحدر منها مُنزلقاً ؟ ماذا لو طار كما تطير
الطيور ؟ وماذا لو صعد إلى أعلى تلك الشجرة ، وجلس بين
فروعها .

وغالب (محفوظ) تلك الرغبات في نفسه أياماً عديدة ،
فصارت تراوده في أحلامه إذا نام ، وفي خياله إذا استيقظ .

فأخذ يميل بالقطيع أحياناً بعيداً عن طريقه المعتاد ويتوغل
به في أماكن يرغب هو في الوصول إليها ؛ أماكن ليس فيها
ما يطلبه القطيع من مراعي وأعشاب ، فيستوحش القطيع وينكر
المكان ، فتثقل منه الحوافز ، ويتوقف بعض أفرادها فيضطر
(محفوظ) إلى العدول عن المضي ، بعد أن يستقر في نفسه هو
أيضاً بعض ما تحس به الغزلان من وحشة ، بل خوف من هذا
المجهول الذي يطرقه لأول مرة ، وتلك الأماكن والبقاع من
أرض الوادي التي لا يشتم فيها رائحة الكأ الذي اعتاد أن

يرتاده ، فقد أصبح كمثل غزلان القطيع ، تحكم عقله غرائز معينة ، وتوجه فكره أموراً فطرية اكتسبها بحكم وجوده بين تلك المجموعة من الحيوان .

ولكن الأيام أججت في نفسه تلك النزعة نحو الاكتشاف ، والرغبة في اقتحام المجهول ، والبحث في سر ما حوله ، وكُنْه كل ما يحيط به من القريب والبعيد .

وغالب (محفوظ) تلك الرغبة طويلاً ، وآثر أن يستسلم لحياة الدَّعة والرتابة كما تفعل بقية أفراد القطيع ، ولكنه عاد فبعث في نفسه تلك الحقيقة التي توصل إليها ، من أنه ليس يُسبَّهها في كثيرٍ من سلوكه وتكوينه .

نحو الصخور

في ذات يوم - والقطيع كله قد أخذ للنوم والراحة ،
في وقت الظهيرة ، عند ظل شجرة وارقة - غلبت على
(محفوظ) رغبة أملتها عليه فطرته الإنسانية وزينها له عقله
الصبياني ، وكان قد بلغ - يومئذ - الثانية عشرة من عمره .

كان يفتش - في تلك الساعة - العشب ، يتوسد يده ،
ووجهه إلى الجهة التي بها الصخور ، فأخذ يتأملها ، وهاجت
في نفسه الرغبة في الوصول إلى تلك الصخور ، ونسى كل
ما حوله ؛ نسي القطيع ، وتقاليده الفطرية ، نسي ارتباطه به
كل تلك السنوات الطوال ، وانتصب واقفاً ، وبدون أن يلقي
نظرة على ما حوله من الغزلان ، تقدم ، وبسرعة كأنما يخشى
أن تبرد عزيمته . ومضى في اتجاه الصخور البعيدة .

وهبت بعض الغزلان واقفةً ، مستنكرةً قيام محفوظ قبل
الموعد المعتاد ، وهم بعضها أن يتبعه كالعادة ، ولكن غريزتها
غلبت عليها ، فظلت قابعة في أماكنها ، إلا واحداً منها ، وكان
(محفوظ) يوليه عطفاً زائداً ، وحناناً ، ويميل إليه أكثر من
ميله لبقية أفراد القطيع ، هذا الغزال الوفي ، المسحب للمحفوظ ،
تبعه ، وهو لا يدري إلى أين المسير .

وسار محفوظ ، يقطع المسافات ، ويحترق المجهول ، نطاً

قدماء أرضاً لم تطأها قبل ذلك ، يتبعه على البعد صديقه الغزال ،
يُسرعُ خلفه تارةً ، ويقف تارةً أخرى متردداً ، يتلفت في
حيرة ، ويستغرب ما يرى حوله من غريب الأرض والنبات ،
ويرسل بصره إلى حيث ترك بقية القطيع ، ثم يعود مرةً أخرى
يتبع محفوظاً .

أما محفوظ ، فكان مدفوعاً بدافع قويٍّ ، لم يستطع التغلب
عليه ؛ دافع كان يدفعه ليمضي إلى الأمام بدون توقف ، ومن
غير وعي منه .

ولكنه — على الرغم من ذلك — توقف فجأةً ، واستدار لينظر إلى
حيث ترك عشيرته وأصحابه من الغزلان ، ولكن الأشجار ،
والمرتفعات من الأرض ، حجبته عنه الرؤية ، فغاب عنه موضع
الغزلان ، ومكان القطيع ، وهو الذي لم يفارقهم السنين الطوال ؛
فغشيت نفسه رعدةً من خوف ، وألمت بها وحشةٌ ، وفكر
في الرجوع عدواً إلى مكانهم ، حتى يدفن نفسه بينهم ، ويطمئن
قلبه المستوحش ، ونفسه الضائعة الملتاعة بأنفاسهم وهمماتهم ،
ولكن تلك الرغبة في الاستكشاف طغت ؛ وتنازعه خاطران ؛
الخاطر الأول هو ما تفرضه عليه طبيعته ، وفطرته الإنسانية ،
رما يُمليه عليه عقله الصبيانيُّ من حُبِّ المغامرة ، واكتشاف
المجهول ، وبين عاطفته المرتبطة بتلك المجموعة من العشيرة .
وأحس بشيءٍ يجيش في صدره ، وبكيانه يهتز ، وبرغبة قوية
في التنفيس عن نفسه ، وسقطت دمعة على خده ، وسالت حتى
بلغت طرف فمه ، ولعلها أول دمعة تسقط من عينيه منذ أن
وعى عقله وأدرك . . ورفع يده يتلمس بأصبعه الماء السائل
على خده ؛ فالتقطه بأصبعه ، وحاول أن يراه ، ولكن الدموع

كانت تملأ عينيه ، ونعشى بصره ، ومن خلالها رأى صديقه الغزال يقترب منه ، ويلق يده بلسانه ، عند ذاك تلاشت آخر مقاومة له في البعد عن القطيع .

وجثا (محفوظ) الحزين على الأرض ، وأخذ يتشمم الغزال ، ويحتضن عنقه ، ويهمهمهم همهمات حنونة مؤثرة . ثم عاد . . عاد مسرعاً ، إلى حيث يرقد القطيع ، وما إن وقعت عيناه على الغزلان الراقدة ، حتى نسي كل ما كان يعتزمه من مفارقتها ، ولو إلى حين .

أما الغزلان فقد هبت مع قدومه ، واجتمعت حوله ، وهي تهمهمهم في حنان كأنما ترحب به ، وتبدي تشوقها له .

الصغير المفقود

مضت الأيام - بعد ذاك - على (محفوظ) ، ولم يُخالج فكره أمر الابتعاد عن قطيع الغزلان ، أما أمر الصخور ، واكتشاف جنبات الوادي ، فقد صرف النظر عنه تماماً .

وانقضى زمن " طويل " ، ولكن حدث ذات يوم ، أن استيقظ (محفوظ) عند الصباح على همهمة حزينة ، صادرة من إحدى الغزالات ، فهم منها - على الفور - أن صغيراً من أفراد القطيع قد فقد . ففتح (محفوظ) عينيه ، وتلفت حوله ، فإذا بإحدى الغزلان ، من الأمهات تقف بالقرب منه ، زائغة البصر ، مضطربة ، تجول بعينيها ، تبحث عن رضيعها ، بينما تطلق صوتاً حزيناً مؤثراً بين اللحظة والأخرى ، عند ذلك أخذ (محفوظ) - أيضاً - يبحث ويراقب بعينه ، يفتش عن

الصغير المفقود ، وهو يعرفه حق المعرفة ، فليس من بين أفراد القطيع صغاراً أو كباراً من لا يعرفه (محفوظ) ، ويعرف كل شيء عنه ، بل أنه شهيد مولد معظم أفراد هذا القطيع .

تذكر (محفوظ) شكل الصغير المفقود ، وحجمه ، وأعاد البحث عنه بين أفراد المجموعة ، ولما لم يجده هب واقفاً ، وقد أزعجه هذا الأمر ، إزعاجاً شديداً ، وسار مبتعداً عن القطيع قليلاً ، يبحث عن الصغير المفقود بين الأحراش القريبة ، وخلف الأشجار ، والصخور ، وفي كل مكان .

وكان (محفوظ) وهو يبحث عن الصغير يتعد قليلاً قليلاً عن القطيع ، فقد كان كلما رأى أكمةً بعيدة توجه إليها ، وكلما شاهد حرساً مضى نحوه يبحث ويفتش ، وفي الوهاد ، وفي الحفر ، كان يفتش عن الصغير ويبحث ، لا يشغل باله إلا فقدانه ، ولا هم له إلا أن يجده . وكانت قدماءه — وهو في هذا — تقودانه إلى أماكن لم يغطها ، قبل ذلك ، وأرض لم يطأها منذ أن حل بالوادي ، ولكنه لم ينتبه لذلك ، إذ أن ذهنه كان منصرفاً إلى أمر الصغير الضائع ، وهمه كان منصباً في العثور عليه .

وفجأة توقف (محفوظ) ، وقد غمره إحساس غريب هو خليط من الخوف والفرحة ، والرغبة . والسعادة ، والتردد وحب المغامرة ، فقد وجد نفسه عند منطقة الصخور ، في حافة الوادي ، عند نهايته القصوى ، فها هي ذي الصخور تقف أمامه عالية شاهقة عاتية ، تسد عليه الطريق . . الصخور . . الصخور التي طالما شاقه أن يصل إليها ، فلم يتيسر له ذلك . . الصخور التي طالما

كان يراها في منامه ، ويرى أنه يتسلقها ، ها هي ذي تقف أمامه
عالية ، صامته ، مَهْيبة . .

ظل (محفوظ) واقفاً في مكانه ، تملكه الدهشة والرهبة
معاً ، يتطلع إلى الصخور وقد غشيه شعور بالسرور والخوف
معاً ، وسرح بخياله ، فأخذ يتخيل نفسه تارة ، وهو يقف فوق
قمة من قمم تلك الصخور ، يُطل على الوادي الأخضر ، وتارة
يرى نفسه - بعين الخيال - وهو يتسلقها ، ويقفز بينها ، ويثب
من صخرة إلى أخرى . .

وهاجت نفس (محفوظ) - الصبي - وسيطرت عليها
الرغبة في المغامرة ، فلم يتمالك أن أسرع نحو الصخور ، التي لم
يكن يفصله عنها غير بضعة خطوات ، وتقدم نحوها في تردد ،
ولكن ما إن بلغها - حتى تسلقها - في بادي الأمر -- وثباً ،
حتى بلغ موضعاً عالياً منها ، عند ذلك توقف ، ودار بجسده يستقبل
الوادي الأخضر ، ليرى كيف يبدو من ذلك الإرتفاع الشاهق ،
الذي لم يصعد إلى مثله من قبل - ولطالما شاقه أن يفعل . .

وقف (محفوظ) مستقبلاً الوادي بوجهه ، وأخذ يحول فيه
ببصره ، يمسه مسحاً ، من أقصاه إلى أقصاه ، وكان كل شيء
فيه واضحاً ، فقد كانت شمس الضحى تُرسل أشعتها القوية على
الوادي ، فيستبين على ضوءها كل شيء ويتضح .

أخذ (محفوظ) يتأمل كل ما في الوادي من شجر ومياه ،
وأنهار ، وما فيه من حشائش ، وصخور متناثرات ، هنا وهناك ،
ورمال ، وحصى . . هنا منطقة المرعى ، التي نقصدها كل يوم ،
أنا وسرب الغزلان ، وهذا هو النهر - ليتني كنت الآن هناك ،

أشرب من مائه ، فإنني أحس بالظمأ ، وهذا هو الوادي الآخر ،
الذي تجدد الغزلان فيه المرعى في بعض الأيام ، وتلك الشجيرات
الكثيرة ، المتشابكة ، نقضي تحت ظلالها وقت الظهيرة في بعض
الأيام ، نستظل بها ، وهناك الأشجار ذوات الثمار اللذيذة الطعم
التي أتناول منها ، كلما جعت .

وعاد محفوظ بنظره إلى المنطقة القريبة من الصخور ،
وأخذ يتأملها ، إن الأرض هنا تختلف طبيعتها عن بقية أرض
الوادي ، فنباتها مختلف ، وتربته مختلفة .

ولفت انتباهه (محفوظ) شيء يتحرك بين الشجيرات القريبة ،
فتنبه ، ودقق فيه النظر ، تُرى ما يكون هذا الشيء .

لم يستبْ - (محفوظ) ذلك الشيء ، في أول الأمر ، فقطب
ما بين حاجبيه ، وركز كل انتباهه ونظره على الشجيرات ، وكم
كانت فرحته عظيمة ، حينما تبين له أن ذلك الشيء لم يكن غير
صاحبه الغزال الصغير الضائع ، والذي كان يبحث عنه قبل قليل ،
فلم يتمالك نفسه من شدة السرور ، والسعادة ، وترك مكانه ،
ونزل وثباً ، حتى بلغ الأرض ، ثم جرى نحو مكان الظبي الصغير ،
فحمله بين يديه ، وعاد به إلى منطقة الصخور .

وقف (محفوظ) ، حائراً في أمره ، وهو ينظر إلى أعالي
الصخور - حيث كان يقف - ؛ هل يعود بالظبي الصغير إلى
أمه ، وينتهي الأمر عند هذا الحد ؟ إذا فعل هذا ، فقد أضاع
على نفسه فرصة نادرة ، أتاحتها له الظروف ، بعد سنين طويلة ،
فهو يضحي بحلمه الذي طالما تمنى تحقيقه . . ؟ هل يضحي من
أجل هذا الصغير ؟ أم هل يضحي بالصغير ؟ فيتركه في مكانه ،

ويعاود الصعود إلى الصخور ، يكشف مخابثها ، ويشبع في نفسه تلك الرغبة التي سيطرت عليه أعواماً طويلة ؟

وحانت من (محفوظ) في تلك اللحظة ، التفاتة نحو الطيبي الصغير والتقت عيناهما ، فأحس حياله بإشفاق شديد ، وشعر نحوه بعاطفة حنان قوية ، ولكن رغبته في تسلق الصخور كانت بالقوة ذاتها ، وإشفاقه على نفسه ، وخوفه من أن يعود خائباً ، حزناً في نفسه ، فجلس يفكر ، حتى اهتدى في نهاية الأمر إلى حل يحقق به الغرضين ، فوصله إلى أعلى الصخور ، رغبة لا بد من تحقيقها ، كما أن إرجاع الطيبي الصغير إلى أمه أمر لا بد منه أيضاً ، فالحل إذن هو في أن يؤجل أحد الأمرين إلى حين . . . وأخيراً قرّر قراره ، فقرر أن يؤجل إرجاع الصغير ، ويبدأ بالصعود إلى أعلى الصخور .

أخذ (محفوظ) - عند ذلك - يصنع ما يشبه الحظيرة الصغيرة ، من عيدان الشجر ، التي وجدها بالقرب منه ، وبعد أن أتم صنعها ، وضع الطيبي الصغير في داخلها ليضمن أنه لا يفر مرة أخرى ، في وقت غيابه عنه ، حينما يتسلق الصخور ، مرة أخرى .

وبعد أن أودع (محفوظ) الطيبي حظيرته ، واطمأن إلى ضمان عدم فراره ، انتصب واقفاً ، وألقى على الطيبي الصغير نظرة حانية ، ثم أسرع نحو الصخور ، وأخذ يتسلقها وثباً ، وهو فريح مسرور ، وكانت حرارة الشمس في أعلى درجاتها ، وقد انتصف النهار ، وكانت أشعتها المحرقة تصل إلى جسد (محفوظ) الصغير العاري ، وإلى رأسه فتؤلمه ، فأخذ يبحث عن مكان بين الصخور ، يحمي فيه من حرارة الشمس ، وأخذ يتلفت

حواله ، إلى أن وقعت عيناه على فجوة بين الصخور ، بالقرب من جانب الجبل ، فأسرع نحوها ، ودخل فيها ، ولاحظ حين دخوله إليها ، أنها أوسع مما كان يقدّر لها ، بل لاحظ أنها تمتد عميقاً إلى داخل الجبل .

لم يكثرث (محفوظ) - في بادئ الأمر - إلى ملاحظاته تلك ، ولم يُلْق لها بالا ، فجلس عند مدخل الكهف ليستظل ويرتاح ، ثم يواصل الصعود ، ولكن حُبهُ للاستطلاع ، وشغفه بالاستكشاف جعلاه يقف على قدميه ، ثم يتقدم داخل ذلك الكهف ، وقادته قدماه إلى مسافة بعيدة داخل الكهف ، الذي خيل إليه أن ليس له نهاية ، ولا له قرار ، وكانت بعض شعاعات من ضوء النهار تصل إلى عمق بعيد من ذلك الكهف .

وتذكر (محفوظ) - فجأة - الظبي الصغير ، وانتظار أمه المسكينة له ، فقرر العودة له سريعاً . واتخذ طريق العودة إلى خارج الكهف ، من حيث دخل ، ثم ، مضى يهبط من أعلى الصخور من حيث صعد ، حتى وصل إلى مكان الظبي الصغير ، فحمله بين يديه وعاد به إلى أمه .

وضع (محفوظ) الظبي الصغير أمام أمه ، التي كانت شبه نائمة في تلك اللحظة ، ولكن ما إن اشتمت - رائحة رضيعها ، حتى دبت فيها الحياة - فجأة بقوة . فأخذت تتشممه وتلحسه بلسانها وهي تصدر همهمة خنونة . أما الصغير فقد أخذ يرضع من ثديها ، بشغف عجيب ، وكل بدنه الصغير يرتجف بينما ذيله الصغير لا يكاد يتوقف عن الحركة ، يُبْصِص به وهو يدفع برأسه خاصرة أمه - أحياناً - يستدر اللبن منه ويستحلبه في حركة سريعة . أما محفوظ فقد جلس بعيداً عن الظبي الصغير وأمّه ،

وأخذ يفكر ، وهو يتذكر ، ويستعيد - في ذهنه - حوادث ذلك اليوم العجيب من أيام حياته في الوادي الأخضر ، وتلك المصادفة التي قادتته إلى ذلك المكان ، وما قام به من تسلق الصخور .

مرَّ كل ذلك في ذهن (محفوظ) كأنه شريط مصور حتى توقف عند أمر الكهف ؛ فلم يكن (محفوظ) قد شاهد من قبل كهفاً ، أو دخل في كهف ، أو ما يشبهه ؛ فحياته كلها كانت في الوادي الأخضر - انطلاقاً في الوديان والمراعي وسهول الوادي . . لم يبلغ قبل ذلك مكاناً ضيقاً كهذا . . وتذكر - شعوره حين دخل الكهف ، فأحب تلك المغامرة ودغدغ خياله ذلك الشعور ، وتمنى أن يعيد ما فعل ، مرة أخرى .

ولمَ لا ؟ ! ! لم لا يعيد التجربة ، مرة أخرى ، وهو يعرف الطريق جيداً إلى هناك وليس ثمة ما يخافه ، أو يخشاه ؛ فقد مضى إلى هناك قبل ذلك وعاد سالماً .

وهبت الغزلان واقفة ، الواحدة بعد الأخرى ، فقد حان موعد الذهاب إلى المراعي ، بعد أن كفت حدة حرارة الجو ، وأخذت الشمس تميل كثيراً عن وسط السماء ، وحينما انطلقت الغزلان نحو المراعي ، انطلق (محفوظ) يسبقها ، ويسير أمامها ، كما اعتاد أن يفعل في كل مرة ، منذ سنوات طويلة .

كان (محفوظ) يسير هذه المرة ، بطريقة تلقائية ، كما اعتاد أن يسير في المرات الكثيرة السابقة ، أما عقله ، وفكره ، فلم يكن في الطريق ، ولا في المرعى ، ولا في الغزلان التي تتبعه ، بل كان هناك ، عند الصخور ، في ذلك المكان الرائع البديع ، الذي زاره ذات مرة . كان يستعيد في خياله تلك اللحظات السعيدة ، التي

قضاها في تسلق الصخور ، يقتحم الكهف ، ويقف في ذلك المكان المرتفع ، يُطل منه على الوادي ، ويراه من زاوية جميلة ، مثيرة .

وحينما اصفرَّ قرص الشمس ، وأخذ يختفي وراء الأفق ، عادت الغزلان إلى حيث اعتادت أن ترقد كل ليلة ، عاد معها محفوظ كما اعتاد أن يعود في كل مساء .

قضى (محفوظ) تلك الليلة وهو يحلم أحلاماً عجيبة ، كان مسرحها جميعاً ذلك المكان الذي قاده إليه الصدفة ، ولم يستطع أن يواصل نومه حينما تذكّر الصخور ، وصعوده عليها ، والكهف ، ووحشته وظلمته ؛ ونشط ذهن (محفوظ) وتنبّه عقله ، وأخذ يفكر في ذلك الكهف المثير ، وأن لا بدّ من العودة إليه ، واقتحامه .

كان (محفوظ) يفكر بعقل تملّكه حب المغامرة ، واقتحام المجهول ، . . . وطال تفكيره ، إلى أن سيطرت عليه فكرة العودة إلى هناك ، فقرر أن ينفذها .

داخل الكهف

حينما استيقظت الغزلان ، عند فجر اليوم التالي ، كان (محفوظ) قد قطع نصف المسافة التي تفصل بين مكانها ، حيث اعتادت أن ترقد ، ويرقد هو معها كل ليلة ، وبين منطقة الصخور ، عند طرف الوادي .

كان (محفوظ) منطلقاً نحو الصخور ، وهو يبحث خطاه ، بل كان يهرول حيناً ، ويجري أحياناً أخرى ، حتى بلغ المكان ، وكانت الشمس قد ارتفعت قليلاً ، وغمرت الأرض بنورها .

ووقف (محفوظ) يتأمل الصخور ، لفترة قصيرة ، ثم أسرع يتسلقها بحفة ، حتى بلغ موضع الكهف ، فوقف عند مدخله متردداً في اقتحامه ثم ما لبث أن دخل إليه مسرعاً ، وخطا في داخله عدة خطوات ، حتى لم يعد يسمع أصوات الطيور التي كانت تغرد ، وهي على الأشجار ، خارج الكهف ، ولا صوت الريح ، وكأنما انقطع عن العالم .

ومضى يمشي داخل الكهف ، وكان كلما تقدم أحس بالظلام يزداد من حوله ، ويتكشف ، فالشُعاع الذي يقع داخل الكهف ، كان يأتي من خلال مدخله فقط . ولكن (محفوظ) أخذ في التقدم ، وازداد الظلام حوله سواداً ، حتى أصبح - آخر الأمر - لا يرى شيئاً مما حوله ، من جدران الكهف ، وصخوره الناثئة .

وفكر (محفوظ) في العودة من حيث أتى ، وكان قد مضى عليه وقت طويل ، وهو يتوغل داخل هذا الكهف العميق ، الذي خُيِّل إليه ألاَّ نهاية له .

كان كهفاً عميقاً حقاً ، ظل (محفوظ) يمشي في داخله ساعات وساعات ، وقد أخذته نشوة المغامرة ، وتملكته الرغبة في اكتشاف المجهول ، وكانت تدور بعقله ، في تلك اللحظات ، حقيقة واحدة ، هي أنه لا بد أن هذا الكهف يقود إلى مكان آخر ، ربما واد مثل الوادي الذي نشأ به ، ولكن إلى متى يظل يمشي في هذا الظلام الدامس .

وفجأة ، شاهد (محفوظ) شيئاً لفت نظره ، وأعاد الأمل إلى نفسه في ذات الوقت ؛ فقد وقعت عيناه على نقطة بيضاء ، لم يتبين حقيقتها ، لبعدها كثيراً عن المكان الذي كان يقف عنده . وغمر محفوظاً الحماس ، ودب في جسده النشاط والحيوية ، فتقدم من غير تردد صوب تلك النقطة البيضاء .

غير أن تقدير (محفوظ) لم يكن صحيحاً للمسافة التي تفصل بينه ، وبين النقطة البيضاء ، إذ أنه ظل يمشي وقتاً طويلاً داخل الكهف ، في ذلك الظلام الشديد ، يتعثر في حجراته أحياناً ، ويصطدم بجدرانها أحياناً أخرى ، وما زالت تلك النقطة بعيدة عنه ، لم يبلغها ، غير أنه لاحظ أنها تكبر كلما اقترب منها ، ويزداد ضوءها وضوحاً ، وهذا ما شجعه على المضي إلى الأمام ، حتى أصبحت المسافة التي تفصل بينه وبين تلك النقطة قصيرة ، عند ذلك وقف وهو حائر مضطرب ، فقد تبين له أن تلك البقعة ، ما هي إلا فتحة بين الصخور . . .

إذن فهناك مجال آخر لمغامراته ، لأن تلك الفتحة قد تؤدي به إلى مكان آخر .

اقترب (محفوظ) من الفتحة ، في تردد ، وأطل منها ، ولم يصدق عينيه في أول الأمر ، فقد كانت هناك مساحة كبيرة من الماء تنبسط أمام بصره تتحرك فيها الأمواج صاحبة ثائرة تتلاطم ، وكأنها تتصارع ، يعلوها الزّبد الأبيض ، ما هذا يا ترى ؟ ! وحده محفوظ بصره فلم يرَ غير الماء تعلوه الأمواج ، التي كانت تحركها - في تلك الساعة - ريحٌ عاصفة عاتية .

ثم حسرَ محفوظ بصره فإذا ، في نهاية ذلك الماء أرضٌ يابسة رملية . وذُهل محفوظ فهو - إلى ذلك اليوم - لم يكن يعلم أنّ هناك عالماً آخر غير عالمه في الوادي الأخضر ، وليس هناك أرضٌ غير أرضه ، أو ماءٌ غير ماء نهره الهادي الجريان ، القليل الصّخب ، كان (محفوظ) يعتقد - إلى ذلك اليوم - أن نهاية العالم هي تلك الصخور ، فإذا وصل إليها ، بلغ نهاية وإذا به حين بانها ، وصل إلى أعتاب عالم جديد من الماء .

كانت الفتحة بين الصّخور ، ضيقة ، لا تكفي إلاً للنظر من خلالها ، ولا تسمح إلا بمرور قبضة يده الصغيرة فقط ، وكانت الصخور الضخمة الصلبة تحيط بها ، وتراكم حولها ، وحاول محفوظ أن يدفع بعضها ، لينفذ من خلالها ، يستكشف ذلك العالم الجديد ، فأخذ يدفع الصخور بساعديه الضعيفين ، لكنّ الصخور لم تتحرك ، فقد كانت راسية ثابتة ، متماسكة ، كأنها جدار متين من حديد .

يشس (محفوظ) - أخيراً - من تحريك الصّخور ، وتوسيع

الفتحة ، واكتفى بأن يطالع من خلالها ، إلى ذلك العالم الذي يشاهده لأول مرة ، والذي لم يكن يعلم عن وجوده — قبل ذلك — شيئاً .

وطالت وقفة (محفوظ) حتى تعبت قدماء من طول الوقوف ، وكان قد ملَّ ما رأى من رتابة منظر الماء والأمواج التي تعلو سطحه ، وذلك الخط الرَّمْلِيَّ عند حافة الماء ، وقرر العودة من حيث أتى ، والرجوع إلى مرابعه ، في الوادي الأخضر .

وعاد (محفوظ) يعبرُ الكهف المظلم حتى وصل إلى مدخله ، ثم خرج إلى أعلى الصخور ، ووصلت إلى أنفه — عند ذلك — رائحة النباتات ، وأريجُ الزَّهر ينبعث من الوادي الأخضر ، يحملهما إليه التيسيم الرقيق ، فكاد ينسى الدنيا الجديدة ، التي كان يُطل عليها منذ لحظات ، وينسى الكهف وظلامه ، والبحر وأمواجه . وشده شوقٌ إلى أرض الوادي ، فسارع بالتزول من على الصخور ، وهو يشب وثباً ، يتعجل تلك اللحظة التي تطلُّ فيها قدماء الأرض المعشوشبة ، ويضمه فيها الوادي الأخضر ؛ وطنه الذي احتضنه ، وكان له السكن ، والأهل ، والأم والأب ، ترعرع بين أشجاره وأنهاره ، ونشأ بين غزلانه ، وقضى ما يقرب من عشر سنوات بين ربوعه ، منذ أن وعى عقله المدركات ، وتفتحت عيناه على الحياة ، وهو في الثانية من عمره .

حينما وصل محفوظ إلى أرض الوادي الأخضر مضى من فوره إلى المراعي حيث ترعى مجموعة الغزلان ، وما أن شاهدها حتى أحسَّ بالأنس وبالطمأنينة تغمر نفسه ، وبالسعادة تشمله ،

وتنمى لو يجمعها جميعاً في مكان واحد ، ويجلس بينها ، ليُطْفِئ ما يحسُّه من شوق نحوها وحب .

كانت الغزلان ترعى متفرقة ، فوقف (محفوظ) ينظر إليها ، ويتأملها - هُنيئةً - ثم أسرع نحوها يحمل صغارها بين ذراعيه ، ويحتضنها في شوق وحنان .

وقضى (محفوظ) سحابة ذلك اليوم يحوب المراعي مع الغزلان ، وقد انصرف ذهنه عن كل ما شاهده في ذلك الصباح حتى إذا ما حل المساء ، ولجأ سرب الغزلان إلى حيث اعتاد أن يلجأ للمبيت ، لجأ معه (محفوظ) إلى هناك ، ونام نوماً عميقاً لم يستيقظ منه إلا على حرارة الشمس ، وكانت الغزلان قد غدت إلى المراعي ، فلحق بها ، وأخذ يبحث معها عن طعامه ، كما اعتاد .

مضت عدة أيام لم يشغلَ فيها أمرُ الصُّخور ولا الكهف ولا تلك الفتحة بال (محفوظ) ، فقد نسيَ هذا الأمرَ جميعه أو كاد .

ولكن بعد أربعة أيام عاودته الأفكار ، وسيطرت عليه الرغبة في العودة إلى هناك - فعادَ - ذات يوم مرة أخرى وأطلَّ من الفتحة على البحر وأماوجه وأصبح من عادته بعد ذلك أن يذهب إلى هناك مرة كل أربعة أيام أو خمسة ؛ يهبُّ عند الفجر وقطيعُ الغزلان ما يزال نائماً ، فيمضي مسرعاً ، يتسلق الصخور بخفة ثم يلجئ الكهف ، ويشق طريقه في ظلامه حتى يصل إلى تلك الفتحة ، فيطلُّ منها على البحر ؛ ذلك العالم الجديد الذي اكتشفه بمحض الصدفة .

وتطول وقفة محفوظ هناك وإطالته ، ثم يعود بعد ذلك ، إلى جماعة الغزلان ؛ أهله ، وعشيرته ، فيقضي بينها بقية الوقت .

ومضت الشهور والأعوام ، و (محفوظ) حريصٌ على الذهاب إلى ذلك المكان ، عند نهاية الكهف كحرصه على صداقة الغزلان والعيش بينها ؛ فهو لا يعرف غيرها أهلاً ولا عشيرةً .

غير أن ذهابه إلى ذلك المكان القصي من الوادي ، وما يصادفه في الطريق إليه من أشياء جديدة عليه ، غريبة حديثة على إدراكه ، فوق ما جدَّ عليه بعد اكتشافه ذلك الكهف العميق وتلك الثغرة التي مكنته من رؤية عالم غير الوادي الأخضر ، كلُّ هذا وسَّع مداركه ، وشحذ ذهنه ، للتفكير ، والتبصر في كل ما حوله وجعله يتأمل ويفكر .

لم تعد الشمس بالنسبة له هي شيء يوقظه عند الصباح بحرارته فحسب ، ليخرج للمرعى مع الغزلان ، ويعود حينما يصفرُّ قرصها ، وندنو من قمة الجبل ، بل أخذ يفكر في دورانها ، فهي تخرج دوماً - من هذه الجهة ، من خلف تلك الصُّخور ، وتظلُّ ماضية إلى أن تختفي في الجهة المقابلة ، بعد وقت يتساوى كل يوم ؛ لم تسرع يوماً في جريها ، ولم تبطئ ، لم تخرج يوماً من حيث تغيب ، ولا غابت حيث تشرق .

إنها تمشي وتجري ، والنبات لا يمشي ولا يجري ، والجبل على الرغم من أنه قوي رهيب فهو لا يستطيع أن يجري أو يتحرك . من أين تأتي هذه الشمس ؟ وأين تختفي ؟ إنها لم تغيب يوماً عن هذا الوادي لعلها نَظُلُّ عليه ، وتُسَرفُ ، وتُراقبُ ، ولكنها

لم تنزل يوماً على الأرض على الرغم من ذلك — لتشرب الماء أو تأكل العُشب والفاكهة ؛ لا بدَّ أنها قوية جبارة أقوى من كل تلك الشموس الصغيرة التي تظهر في غيبتها حينما تختفي في الليل ، وذلك القمر الذي يظهر بالليل أحياناً فتفرح به الغزلان ، وتمرح ، وتلهو ، يكسبها النشاط ويكسبني ، ويضفي على النهر والشجر ، وكل ما حولي جمالاً وبهاءً .

ومضت ثلاثة أعوام على (محفوظ) بعد ذلك ، وبلغ عمره الخامسة عشرة ، وأخذ ذهنه ، يتقد ويتفتح ، ودبت في جسده حياةٌ جديدة غريبة ، وبدأ بحس تدفق الدم حاراً في عروقه ، وقويت بنيته ، واشتدت عضلاته ، وأخذ حماسه للهو مع الغزلان وصغارها يفتّر ، وزهد في المغامرات ، والصعود إلى المرتفعات وتسلق الأشجار ، والقفز منها ، والجري ، والقفز ، وصار يقضي معظم الوقت في التأمل والتفكير في كل أمر يخطر على ذهنه ، ومراقبة كل ما حوله من حركة الأشياء وسكونها ، وكان أكثر ما يشغله ، ويحير عقله ، ومعظم ما يحول في ذهنه من تساؤلات عن الشمس . . .

من أين تأتي . . . ؟

هل تأتي من وراء ذلك الكهف المظلم الغامض . . ؟

أم ، هل تخرج من بين تلك الأمواج العاتية ؟

ولمّا أين تعود ؟

هل تعود إلى ذلك الكهف العميق الغور ؟

أم إلى تلك المياه الوفيرة . . تخنيء فيها ؟ لا . . إن طبيعة

الشمس الحرارة . . فهي تُصلي هذا الوادي بنيرانها . . . في حين
أنَّ طبيعة الماء البرودة ، وقد لمست هذا في ماء النهر . . .

إذن ، فليس الماء مصدرها ، ولا منتهىها . . ولا مرقدَها ...

أخذ (محفوظ) يفكر ، إن لم يكن هذا هو ذاك . . ؟ أو لم
يكن ذاك هو هذا . . ؟ فمن أين تأتي الشمس كلَّ يوم . . ؟
وإلى أين تذهب . . ؟ وأين تختفي . . ؟ وماذا تفعل مدة
اختفائها . . ؟ ! !

وأخذ (محفوظ) يفكر ويخمن :

لعلها تختفي . . حين تختفي ، في جوف الأرض ، فتطرد
من باطن الأرض هذا النبات ، الذي يبرز كل يوم إلى سطحها ،
ويطول ، وتلك الحشائش التي ما إن تأكلها الغزلان ، وتأتي
عليها ، حتى تظهر من باطن الأرض حشائش غيرها . .

من يدفعها من باطن الأرض إلى سطحها ؟ لا بد أنها تلك
الشمس هي التي تفعل ذلك في أوقات اختفائها بالليل ، حينما
نأوي إلى ذلك المكان ، ونستغرق في الرقاد ، ويغطي الوادي
الظلام ، عند ذلك تبدأ هي في عملها ، فما نلبث عند الصباح
أن نجد الحشائش قد نمت ، وخرجت إلى ظاهر الأرض ، والثمار
قد وُضعت على الشجر ، فتأكل الغزلان ، وآكل أنا معها .

وهكذا أخذ (محفوظ) يقضي معظم وقته يفكر ، ويتأمل ،
بل يكدِّ ذهنه ، ليجد العلاقة بين كل أمرٍ ومسيبته ، وكل فعلٍ
وفاعله .

الصاعقة

قضى (محفوظ) ، ذات ليلة — بعد أن نامت الغزلان —
شطراً طويلاً من الليل ، وهو يفكر — كعادته — ويتأمل ، كان
يستلقي على ظهره ، فوق العشب ، يطالع صفحة السماء ،
ويتأملها ، وقد اختفت نجومها في تلك الليلة خلف السحب
التي كانت تموج موجاً ، لا تستقر على حال ، ولا تبقى في موضع
واحد ، لا تهدأ ، ولا يقر لها قران ، تحملها الرياح القوية ،
تجري بها من مكان إلى مكان ، وكلما مضى الوقت تراكمت
تلك السحب فوق بعضها ، وتكاثفت ، حتى غدت السماء مظلمة ،
سوداء كالحلة .

وهبت ريح باردة ، هادئة ، ندية ، ارتاحت لها نفس
(محفوظ) وانتشت ، بينما استيقظت الغزلان فزعاً ، وأخذت
تجري ، وهي مضطربة ، وجيلة ، إلى داخل الأحراش ، تختفي
بأكمة غزيرة النبات .

وانتصب محفوظ واقفاً ، من غير وعي منه ، وهم بأن
يتبع الغزلان ، كما اعتاد أن يفعل في كل مرة ، منذ أن نشأ
طفلاً صغيراً بينها ، ولكنه في هذه المرة عاد وقد غلب عليه
فكره ، فجلس ، بل استلقى على العشب كما كان ، وقرر أن
يرقب ما يحدث في السماء .

ولقد كان (محفوظ) ، في أيامه الماضية ، وسني طفولته
الأولى ، لا يعي كثيراً مما يحدث حوله ، بل كان يتبع الغزلان ،

التي تقودها فطرتها في كل الأحوال ، فحين كانت تشتم في الرياح قرب هطول المطر ، وتسرع بالاختباء كان يفعل مثلها لتلك الرياح ، التي يرسلها الله تبارك وتعالى ، قبل هطول المطر ، بشرى لأهل الأرض ، برحمته القريبة ، وبالنخير الآتي ، الذي يحمله المطر للأرض ، وأهلها ، :

« وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ »

ومن رحمته ، أن تلك الرياح تفهمها ضعاف الحيوان ، وصغارها بفطرتها ، فتلجأ إلى أوكارها وجحورها ، ومخابئها ، وتحسها الطيور فتختبئ بين الأغصان المتينة ، وفي الأكنان ، وتلك فطرة الله ، أودعها الحيوان الأعجم ، الذي لا عقل له ، ولا إدراك ، يدرك به ظواهر الكون ، أو يفهمها ، وذلك حتى لا يهلك ، رحمة من الله اللطيف الخبير ، الرحيم بمخلوقاته .

بقي (محفوظ) في موضعه ذاك ، يرقب السماء ، ويحاول جهده فهم ما يحدث ، وإدراك ما يدور فيها ؛ كيف تتحرك تلك الكتل الهائلة من السحاب ، وهي في ضخامة الجبال ؟ وكيف تمور ، وتموج في بعضها في هذا العلو ، ولا تسقط ؟ وكيف . . . وكيف . . . ؟

وأخذ (محفوظ) يفكر ، وبينما هو كذلك ، إذ تغير الحال فجأة ، فأضاءت السماء ، بنور قوي وهاج ، كأنما انشقت عنه تلك السحب ، وعلى ضوءها الخاطف ، رأى محفوظ كل ما حوله ، وكأنما هو في منتصف النهار ، فذهل (محفوظ) ، وقال في نفسه . . . « لعلها الشمس ؛ خالفت عاداتها ، وظهرت اللحظة ، في هذا الوقت من الليل ، حتى شهد ما يحدث في جو السماء ، من هرج ، ومرج .

كان ذلك الضوء ، الذي رآه (محفوظ) ، هو ضوء البرق ، كان قوياً خاطفاً ، لم يدركه عقل (محفوظ) ولا فهمه ، فأخذ به ، ودُهِش ، وقبل أن يفيق من دهشته — دَوَّت السماء برعد ، أصمَّ دويُّه أذني (محفوظ) ، وكاد يُغشى عليه ، فقامَ من موضعه ذاك ، وهبَّ مُسرِعاً يتخبط في مشيه ، يبحث عن مخبأ ، يأوى إليه ، يختبئ فيه . وكانت الأمطار قد أخذت تهطل غزيرة وفيرة ، بينما كانت السماء تبرىق ، وترعد وتُدوي .

مضى (محفوظ) يبحث عن مخبأ الغزلان ، وهو يُسرع متعثراً في مشيه . . . كلما أضاء له البرق مشى في ضوئه ، فإذا أظلم ، وقف خائفاً مضطرباً ، إلى أن بلغ المخبأ .

اختبأ محفوظ بين الغزلان ، وهو خائفٌ وجلٌ مضطربٌ ، ولكن ما لبث أن عاودته الرغبة في استجلاء ما يحدث في سماء واديه الأخضر ، وما يدور . . .

وخطر بذهنه — في تلك اللحظة — ما شاهده من مياه وافرة في ذلك المكان ، من خلال ثغرة جدار الكهف ؛ تذكرها ، وحاول ذهنه المتعب المكدود ، أن يربط بين تلك المياه الوفيرة ، التي رآها هناك ، وهذي المياه الغزيرة ، التي تهطل من أعلى السماء — وقالَ : — لعلها هي ، بل لا بد أنها هي تلك المياه ، قد احترقت الجوّ ؛ لا بد أنها هي من غير شك ، فقد كانت تملأ أمواجاً ، وترغى ، وتزيد ، هي . . هي . . ولكن كيف هذا ؟ كيف يحدث هذا ؟ ثم عاد (محفوظ) فقال في نفسه : هذا جائز . . نعم . . أن يحدث هذا جائز . . ويحدث غير هذا ، فأنا لا أكاد أفهم شيئاً مما يدور حولي من أمور ؛ . . يظلم

الوادي ، ويضيء . . . تنبت أشجارٌ ، وتخضرُ ، وتصفرُّ أخرى ،
وتذبلُ . . . وتسقط أوراقها — وتسقط هي أحياناً — يخرجُ غزالٌ
صغيرٌ ، من غزال آخر كبير . . . تظهر الشمس أحياناً بين السحب ،
وتدوَّى ، تنام غزالةٌ ، ثم لا تقوم ، وأحياناً تقوم ، وفي بعض
الأحيان لا تقوم ، حتى تنفتت في موضعها ، . . . إنني لا أكاد
أفهم شيئاً . . . الماء هناك ، خلف الكهف كثير وفير ، وما هو ذا
يهطل الآن هنا . . .

وأطلَّ محفوظ برأسه ، من بين الشجيرات الكثيفة المتشابكة
ثم رفع بصره ، ينظر إلى السماء ، وكان السحاب ما يزال مترامكاً ،
والبرق يبرق وقتاً بعد وقت ، وأصواتُ الرعود تُزجر من
حين لحين .

وفجأة بهر عيني (محفوظ) ضوءٌ قويٌّ أخذَ من بين
السحب ، فشقَّ الفضاء شقاً ، وتوهجَ فأضاء كل شيء ، وأثار
كل جنبات الوادي ، ثم أعقبه صوتٌ حادٌ ، تجاوبت معه السحب
ورددته الجبال ، فصعق (محفوظ) وترنح ، فارتطم رأسه
بساق شجرة غليظ ، وسقط على الأرض ، وخيَّل إليه — وهو
يسقط — أن شعلة من نار قد سقطت ، في جانب من الوادي ،
فاشتعل ذلك الجانب بالنيران .

مضت — بعد ذلك — عدة لحظات ، على (محفوظ) ،
وهو ملقى على الأرض ، فاقد الرُّشد ، فلما أفاق ، أخذ ينظر
إلى حيث حسبَ أن الشعلة سقطت ، فإذا نارٌ عالية اللهب ،
وحريق رهيب ، ونارٌ تآكل الشجر الأخضر واليابس .

ذُهل (محفوظ) ، وأخذ ينظر إلى ألسنة اللهب العالية ،

ويقول - في نفسه - لقد سقطت على الأرض ، سقطت الشمس ، سقطت تلك التي تظهر كل يوم ، فتضيء الأرض بنورها ، وترسل حرارتها عليها ، لقد سقطت على الشجر ، فأحرقتة ، إذن . . . فلن تظهر غداً مرة أخرى . . . كيف ستخرج غداً إلى المراعي ؟ وكيف نجد ثمارنا ، إذا كان هذا الليل ، وهذا الظلام سيستمر سرمداً ؟

وتعب عقل (محفوظ) المكدود - من التفكير ، فرقد حيث كان ، ونام نوماً عميقاً ، حتى الصباح ، حينما أيقظه ضوء النهار ، وكانت الشمس ما تزال تحتجب خلف الغيوم .

عندئذ قام (محفوظ) من مكانه ، واتجه صوب المكان الذي ظن أنه توهم أن النار قد اشتعلت فيه ليلة البارحة ، وكان يظن أن الذي رآه من أمر النار إنما هو حلمٌ وحسب .

ولكن ما أن اقترب من المكان حتى هاله أن وجد الشجر هناك قد استحال إلى رماد ، بعد أن قضت عليه النار ، فأحرقتة جميعه .

ووقف (محفوظ) ينظر إلى آثار الدمار ، الذي أحدثته النيران ، فأخذته رعدة خوف من الشمس ، ورهبة ، وتأكدت له قوتها ، وجبروتها ، فلقد صعقت الشجر الأخضر ، فأحالته رماداً ، فكيف لو سقطت عليه هو . . فأهلكته ، ودمرتة .

وخاف (محفوظ) ، ورفع بصره إلى السماء ، فإذا به يرى الشمس قد ظهرت من بين الغمام .

لم يصدّق (محفوظ) عينيه حين رأى الشمس ، فاضطرب عقله ، وذُهل ، كيف هذا . . ؟ من أين جاءت ؟ . . إنها هناك ،

في موضعها من السماء ، على الرغم من أنني رأيتها بعينيّ تسقط على الأرض ليلة البارحة ، فتمحرق الشجر . . . إذن ، فهي تملك أن تعيد لنفسها الحياة .

عند ذلك تمكن من نفس (محفوظ) الخوف من الشمس ، وتغلغت في قلبه الرهبة ، وتملكه الوجع منها ، راعتقد أنها هي التي تملك الحياة والموت ، وأنها خالدة ، لا تموت ؛ هي التي تخلق النبات بالليل ونحن نيام فتحييه وتخرجه لنا ، وهي التي تسقط عليه فتميته وتفينه كما فعلت بالأمس ، وتملك قلب (محفوظ) الخوف من الشمس ، وأصبح - بعد ذلك - يخشاها ، وتغشي الرهبة قلبه كلما وقعت عليها عيناه ، لا سيما عند شروقها ، وغروبها حين تبدو له كبيرة ضخمة ، وقرينة ، سريعة الجريان ، فكان يجلس في هذين الوقتين يستقبلها في تبتل وخشوع ، ويرجو منها - في سرّه - ألا تؤذيه ، أو تحرقه ، كما أحرقت الشجر ، ويطلب منها أن تنبت النبات ، والثمر والحشائش ، وألا تغضب منه ، فتزجر في السماء ، وترسل نفسها حيماً على الوادي .

وكان (محفوظ) ، كلما استيقظ في الليل ، نظر إلى القمر في خوف وحذر - أيضاً - فلا بدّ أنّه هو - الآخر يملك تلك القوة ، ولو أنها أقل من قوة الشمس وجبروتها .

الزائر

ظل (محفوظ) واقفاً في مكانه ، ينظر إلى الدمار الذي أحدثه وقوع الصاعقة على الأشجار ، وكان يعتقد أنه من فعل الشمس ؛ فهاله ذلك .

وتذكر - في تلك اللحظة - الكهف ، وأراد أن يذهب إليه ، حتى يتحقق من أمر خطر بذهنه بالأمس ، أثناء هطول المطر ، هو أمر الماء الذي شاهده من خلال الثغرة في الكهف ، هل هو الماء الذي سقط على الوادي مطراً ليلة الأمس ؟

وسيطرت على (محفوظ) رغبة جامحة في الذهاب إلى الكهف ، وقويت الرغبة عنده في التأكد من أمر الماء هناك . . . وازداد السؤال إلحاحاً على عقله :

هل ما زال ذلك الماء باقياً في مكانه أم أنه تحول إلى ذلك المطر ، الذي هطل ، فغمر الوادي ليلة البارحة ؟

لم يتردد (محفوظ) ، أو يبطيء ، أو يتأخر ، بل مضى من فوره إلى طرف الوادي مسرعاً ، فصعد الصخور ، في عجل ، واخترق الكهف حتى بلغ الفتحة التي في نهايته .

أطل (محفوظ) من الفتحة ، فإذا الماء هاديء ساكن في مكانه ، غير أن هناك شيئاً على سطحه ، لم يتبينه (محفوظ) - في بادئ الأمر ، فأمعن فيه النظر ، ولكنه لم يستطع معرفته

بالتحديد ، ففرك عينيه ، ودقق فيه النظر مرة أخرى ، ولكن لم تتضح له معرفته ، غير أنه بدا له كقطع ضخمة من الخشب ، تطفو على سطح الماء ، قرب الساحل ، ترى من أين جاءت ؟ كانت على الساحل الرملي ، ثم حركتها الريح ، فسقطت في الماء .

وعاد (محفوز) بنظره إلى الساحل ، ليرى إن كانت ثمة قطع خشبية أخرى أم لا ، فوقعت عيناه على شيء يرقد هناك على رمال الساحل ؛ حسبه (محفوز) في أول الأمر كتلة خشبية ، من تلك التي شاهدها على سطح الماء ، ولكن شكلها وهبتها لم تكن تدل على ذلك . . ترى ما هذا الشيء . ؟

وأحس (محفوز) كأن الأرض تهتز تحت قدميه ، حينما تبينت له حقيقة ما يرى ، إنه مخلوق ، قريب الشبه منه . . له قدمان مثل قدميه ، ويدان كيديه ، ورأس كراسه ، إنه لا يشبه الغزلان ، ولا الطيور ، لا بد أنه من فصيلة أخرى ، قريبة الشبه منه ، ولولا أن الرجل المسجى على الرمال كان يرتدي بعض الملابس الملونة لتأكد (محفوز) من أنه يشبهه تماماً في تكوينه ، وأنه من فصيلته ذاتها . . ، ولكن الملابس التي كان يرتديها الرجل - وهي غريبة على (محفوز) - ، ظلمته ، وجعلته يعتقد أن هذا المخلوق قريب الشبه منه وحسب .

بعد أن أفاق (محفوز) من دهشته لرؤية ذلك الرجل ، وفي ذلك المكان ، وكانت تلك أول مرة يرى فيها مخلوقاً غير الغزلان والطيور ، بل مخلوقاً يُشبهه كثيراً في تكوينه الجسماني بعد أن أفاق (محفوز) من وقع المفاجأة عليه ، أخذ يُمنع النظر في كل جزء من أجزاء جسد الرجل ، وهو

يراقبه من خلف الفتحة ، فلاحظ أن هناك جُرحاً في رأسه ، يسيل منه الدم .

حَزَنَ (محفَوظ) لهذا المنظر ، وتحركت في قلبه عاطفة الشفقة ، والخير ، وسيطرت على نفسه ، دوافع الشهامة والنخوة ، والنجدة ، وأحس بعاطفة قوية نحو ذلك المخلوق الملقى على الأرض . وقرر أن يصل إليه بأية وسيلة ، وأن يفعل شيئاً في سبيل إنقاذه ، ولكن كيف يصل إليه وبينهما ذاك الحاجز من الصخر ؟

أخذ (محفَوظ) يدفع بيديه الصخور ، التي تُحيطُ بالفتحة ، ولم يكن قد قام بهذه المحاولة من قبل ، في مرته الأولى قبل ثلاث سنوات ، حين كان لا يزال في الثانية عشرة ، أما الآن — وقد اكتسب جسمه قوة الشباب ، وعنفوانه ، وقويت عضلاته ، وامتلأت نفسه بالحماس ، والتحفز ، والإقدام — فقد أحس في داخله ، برغبة قوية تدفعه لتحطيم تلك الصخور ، حول الفتحة ، حتى يعبر من خلالها ليصل إلى ذلك المخلوق الجريح لمساعدته ، وإنقاذه من آلامه ، فلظالماً ساعد غزالا جريحاً من قطيعه ، وظالماً استعان بمهارة يديه في مداواة الجرحى من أفراد القطيع ، وجبر كسور أرجلهم .

وتناول (محفَوظ) صخرة كبيرة ، وجدها قريباً منه وأخذ يضرب بها الصخور حول الفتحة ، حتى يفتتها ، ويوهن تماسكها.

وبرقت عينا (محفَوظ) من الفرحة ، حتى سقطت من أثر ضرباته — القوية الهائلة — ، كتلة من الصخر ، كانت ترتكز عايتها كتل أخرى ، مختلفة الأحجام من الصخور .

ولكن فرحة (محفوظ) لم تدم طويلاً إذ حدث شبه انهيار صخري في المكان ؛ فالصخور كانت يتركز بعضها على البعض الآخر ، وتسبب تساقط تلك الصخور وتراكُمها في قفل الفتحة ، حتى لم يعد (محفوظ) يرى من خلافاً ما كان يرى من قبل .

وأظلم الكهف ، على إثر ذلك ظلاماً شديداً ، ولكن عزيمة (محفوظ) لم تنه ، وحماسة لم يفتر ، بل ازداد عزمًا وحماساً ، وأخذ يدفع الصخور بيديه ، ويبعدها بعضها عن بعض ، بكل قوة وعنف ، حتى تكشفت عن فتحة كبيرة ، أخذ محفوظ يبعد عنها الصخور ، صخرة إثر صخرة ، حتى ازداد اتساع الفتحة ، وأصبح بمقدوره العبور من خلافاً إلى خارج الكهف ، فعبّر .

حينما خطا (محفوظ) عدة خطوات خارج الكهف ، وقف وقد نسي كل شيء عن الرجل الجريح ، وعن إنقاذه ، نسي كذلك آلام جسده ، وإرهاق بدنه ، والجراح المتعددة التي أصابت يديه ، وأدمت أصابعه ، عندما كان يحاول إبعاد الصخور عن الفتحة ، نسي كل هذا ، إذ بهر عقله ذلك الفضاء اللانهائي فوق مياه البحر ، وتلك المساحة الشاسعة التي تغمرها المياه ، وامتد بصره لأول مرة نحو الأفق ، فرأى كيف تلامس السماء الأرض ، وكيف أن السماء ليست سطحاً ممدوداً ، كما كان يراها من داخل الوادي ، بل هي قبة زرقاء ، تنزل حتى تلامس سطح الأرض أو الماء ، إذن ، فهنا عالمٌ أرحب من الوادي الأخضر ، هنا السماء بلا حدود ، والماء بلا حدود .

ومد (محفوظ) المأخوذ ، المنبهر بصره ، وأرسله مع الشريط الساحلي ، هنا — أيضاً — أرض بلا حدود ، ونظر (محفوظ)

إلى يمينه ، ثم عاد فالتفت إلى يساره ليشهد امتداد الساحل الممتد إلى ما لا نهاية — في نظره — ثم التفت إلى الجهة الأخرى ، قوقع بصره على الرجل ، وعندها فقط تنبه ، وعاد إلى ذهنه — ساعتئذ — أمرُ الرجل الذي فعل من أجله ، كل ما فعل . وثارت في نفسه الشهامة ، فاندفع ، بعاطفة قوية نحو الرجل ، حتى وقف بالقرب منه ، وأخذ يتأمل شكله .

لأنه يشبهه — تماماً — إذ ليس ، في جسمه ، شعرٌ مثل ما للغزلان ، وليس له عنقٌ طويلاً ، ولا أرجلٌ — رفيعةٌ — تنتهي بأظلاف ، لا . . . ولا . . . وأخذ محفوظ يُعَدُّ — في ذهنه — الفوارق بين هذا المخلوق ، وبين الغزلان ، ثم يُقارن بين الرجل وبين تكوينه هو ، وإذا به يقطع — في آخر الأمر — بأن هذا المخلوق إنما هو من فصيلته هو ، ومن جنسه ، وهنا استغرق (محفوظ) في التفكير في أمر جديد ما كان يعلمه من قبل ، وهو وجود مخلوق آخر مماثل له في الشكل ، فهو منذ أن وعى الحياة في الوادي الأخضر الذي كان يعتقد أنه العالم كله ، ولا عالم سواه ، منذ أن وعى عقله وأخذ يحوب أرجاء عالمه ذاك ، لم يصادف مخلوقاً يشبهه ، لا في الماشيات ، ولا في الطائرات ، ولا في الزاحفات .

ومد (محفوظ) يده ، بحذر ، وتوجس ، وأخذ يلمس بها ملابس الرجل ، ويقلبها بين أصابعه ، حتى تأكد من أنها ليست أصلاً من تكوين هذا المخلوق ، ولا جزءاً من جسمه .

كان الرجل ساعتئذ — فاقد الوعي ، ولعله أصيب في البحر ، أثناء هبوب العاصفة ، في الليلة السابقة ، فتحطم مركبه على الساحل ، وقَدَّفت به الأمواج إلى الرمال ، وهو على تلك

الحال من الإغماء ، أو ربما أُصيب بتلك الإصابة ، بعد أن تحطم مركبه ، فصارع الأمواج حتى بلغ الساحل ، وألقى بنفسه في هذا الموضع ، ثم أُصيب بالإغماء من فرط ما نرف جرحه من دم .

أما (محفوظ) ، المحدود الإدراك ، فلم تخطر بذهنه أي من هذه العلل ، والاحتمالات ، بل اعتقد — في بادئ الأمر — أن الرجل نائم ، فأخذ في إيقاظه برفق ، وهو متوجس وجيل ، فلما لم يستيقظ ، قدر أنه متألم يعاني من ذلك الجرح ، ألماً يجعله في حالة مشابهة لحالة الموت .

عند ذلك أخذ في إزالة الدم من حول الجرح الغائر في رأس الشجر .

وأحس (محفوظ) بالعطش الشديد ، فدفعته العادة إلى أن يتقدم إلى جهة الماء ، وأخذته رهبة وهو يقف على الساحل ، ليس أمامه غير الماء تصطبخ أمواجه ، وانتابه شعور غريب ، حين لامست مياه البحر قدميه لمساً خفيفاً ، ثم انحسرت عنهما ، فلم يُحرك قدميه ، بل جلس عند طرف البحر كألماًخوذ ، وغمس يديه في الماء ، وأخذ منه بكفيه ، ليشرب ، كما اعتاد أن يفعل — في كل مرة ، عند النهر — حينما يرغب في الشرب ، ولكن ما إن وصل ذلك الماء المالح إلى لسانه ، فتذوقه ، حتى هب كالمللوع ، وهو يقذف بالماء خارج فمه ، وخطا خطوات سريعة للوراء ، ثم ترك مكانه على الساحل ، وقد أحس بغضاً لذلك البحر ولما ذى الطعم المالح ، ولم يكن (محفوظ) يعرف طعم الملح قبل ذلك ، ولا تنوَّقه .

وقف (محفوظ) بعيداً ، يتأمل ذلك الماء المرّ المذاق ،
وأخذ - وقد غلب عليه العطش - يتذكر ماء النهر ، في الوادي
الأخضر ، ذلك الماء العذب ، الصافي النмир ، . . وهزته ذكرى
الوادي الأخضر ، وتمنى لو كان - في تلك الساعة - هناك ،
بين أشجاره وأنهاره والغزلان .

ولم يفق (محفوظ) من تأملاته تلك ، ويتنبه إلا على صوت
أنة خافتة ، صدرت عن الرجل الجريح ، فمضى نحوه ،
وجلس إلى جواره ومضت لحظات ، ثم فتح الرجل عينيه ببطء
فلما شاهد (محفوظ) ، عاد فأغمضهما وفتحهما عدة مرات ،
كأنما يتحقق من صدق ما يرى ، وحقيقة ما وقعت عليه عيناه ،
فلما تحقق مما يرى ، بدت على وجهه علامات العجب ، ولم
يكن (محفوظ) أقل عجباً منه .

مضى بعض الوقت - بعد ذلك ، لم يأت فيه أي من الرجلين
بأي فعل أو حركة .

وأخيراً نطق الرجل الجريح بكلمات قليلة ، وجهها
لـ (محفوظ) ، وانتظر الإجابة عنها ، فلما لم يلقَ من (محفوظ)
إجابة ، أعاد النطق بالكلمات مرة أخرى ، ولكن لم يلبس
من (محفوظ) ما يدل على أنه فهم ما سمع ، عند ذلك ظن
الرجل أن هذا الشاب قد يكون يتحدث ، ويفهم لغة غير اللغة
التي يخاطبها ، فقرر أن يعبر له عن مقصده بطريق الإشارة ،
وحرركات اليدين ، فأخذ يفتح فمه ، ويقرب منه قبضة يده ،
كناية عن رغبته في شرب الماء ، ففتح الفم للشرب ، وقبضة
اليدين لرمز لكوب الماء ، فقد اعتاد الرجل أن يعبر عن طلبه للماء
بتلك الحركة ، يأتينا بيده مقبضة ، يقربها من فمه ، فيفهم

غيره أنه يرغب في الشرب ، ولم يدُرْ بذهنه ، أو يخطر بباله ، أن هذا الإنسان الذي يجلس أمامه ، لم يرَ في حياته كوب ماء ، ولا استخدم في حياته وعاء لشرب الماء .

ثم أن محفوظاً فهمَ حسب إدراكه القاصر أن الرجل جائع ، فهب بسرعة شديدة ، وجرى نحو الفتحة التي كان قد أحدثها بالجبل ، فاقتحم عن طريقها إلى داخل الكهف ، وعبره بسرعة فائقة . وكان الضوء الذي دخل إلى الكهف من خلال الفتحة كافياً لإنارة الطريق أمام (محفوظ) ، مما ساعده على الإسراع .

مضى (محفوظ) يهبط من أعلى الصخور ، مجتازاً عرض الوادي ، حتى وصل إلى مكان يعرفه جيداً ، ويعرف أشجاره ، فاقتطف منها بعض ثمار الفاكهة الطازجة ، وعاد بها مسرعاً إلى الرجل الجريح ، لا يلوي على شيء .

قدم (محفوظ) الفاكهة إلى الرجل الذي أخذ يلتهمها وقد أحس بالألفة نحو محفوظ ، والامتنان له ، ثم أعاد الإشارة ذاتها ، يطلب الماء . . وفهم (محفوظ) ما فهمه في المرة السابقة ، وظن أن الرجل لم تشبعه تلك الحبات من الفاكهة التي قدمها له ، وأنه ينبغي المزيد منها ، فهم بالقيام ، والعودة إلى الوادي الأخضر ، لجلب المزيد منها ، ولكن الرجل أمسك به برفق ، ثم أخذ يكرر الإشارة بيدٍ ، ويشير نحو البحر باليد الأخرى .

عندئذ ، فهم (محفوظ) مقصد الرجل ، وتذكر ماء البحر ، ومذاقه العلقم العجيب ، ففكر في أن يسقي الرجل من ماء النهر ، ولكن كيف يجلب له الماء وهو قد اعتاد أن يذهب

بنفسه للشرب من الماء في النهر كلما عطش ، وكذلك تفعل
الغزلان والطيور ، لم يضطّر يوماً لنقل الماء من نهره ؛ فالماء في
النهر ، يردهُ كل من أراد الشرب منه ؛ حتى المريض من
الحيوان ، إما أن يصل إليه فيشرب منه ، وإما أن يموت عطشاً .

وعبر (محفوظ) لأول مرة - في حياته - عن مكون نفسه
بالإشارة ، مثلما فعل الرجل ، فأشار إلى جهة الماء بيده ثم أشار
بإصبعه إلى اتجاه الوادي الأخضر ، ثم قام من فوره ، واتجه نحو
فتحة الكهف ، وكان يقف بعد كل عدة خطوات ، ويانتفض
إلى الرجل يستحثه ، ويشجعه ليتقدم ، ويتبعه ، وأخيراً فهم
الرجل مقصد (محفوظ) فتبعه ، وسار من خلفه .

مشى (محفوظ) في نفس الطريق الذي سار فيه في المرة
السابقة ، وكان الرجل يتبعه ، وهو يتلفت ذات اليمين ، وذات
الשמال ، كالمستوحش ، يدهشه كل ما يرى ، ويلفت انتباهه ،
كل ما حوله .

حينما هبط الرجلان إلى أرض الوادي ، مضى (محفوظ)
من فوره نحو النهر ، وأخذ يغترف منه بيديه ويشرب ، وهو
ينظر إلى الرجل بين الغرفة والأخرى ، كأنما يعامه كيف يشرب .

وتقدم الرجل نحو الماء ، وأخذ يشرب منه ، يغترف بيديه
من مائه ، كما يفعل (محفوظ) ، حتى ارتوى .

بعد أن شرب الرجل من ماء النهر في الوادي الأخضر ،
وارتوى ، تقدم من (محفوظ) ، وهو يتسم له ، ويأتي بحركات ،
وإشارات ، دليل الامتنان والشكر .

أما (محفوظ) فقد أمضى وقتاً يتأمل شكل الرجل ، وحركاته التي لم يفهم منها شيئاً ، ثم يذكر - فجأة - جماعته من الغزلان ، فجرى نحوها ، وكان يعرف أين ترعى في ذلك الوقت من النهار .

وتبعه الرجل عن بُعد ، وهو لا يعرف وجهته . وسار (محفوظ) بين الأشجار ، وأحرق الأحرش ، حتى بلغ موضعاً كثير العشب ، كانت الغزلان - في ذلك الحين - ترعى فيه .

تقدم (محفوظ) نحو القطيع ، فلما أصبح بين مجموعة الغزلان ، حمل أحد صغارها بين ذراعيه - كما اعتاد أن يفعل في كل مرة - ومضى ، والغزلان من خلفه - نحو النهر ، وأخذ يتقدم شاقاً طريقه بين دروب الوادي ، التي اعتاد أن يسلكها ، يتبعه كل القطيع .

وكان الرجل يرقب كل هذا ، وهو في غاية التعجب والاندعاش ، وتأكدت في ذهنه حقيقة واحدة ، هي أن هذا الشاب إنما نشأ بين تلك الغزلان ، أو أنه أمضى بينها سنين طويلة من عمره ، وإلا لما ألفته ، وألفها ، بحيث أنه يحن إليها هذا الحنين ، وتألفه هي مثل تلك الألفة ، فلا تنفر منه .

عندما صلت الغزلان عن النهر ، بعد أن شربت ، كان (محفوظ) يتقدمها إلى الموضع الذي اعتادت أن تأوي إليه للمبيت ، فقد كانت الشمس تميل - ساعتئذ - نحو المغيب ، ولن تلبث أن تختفي ، ويعم الوادي الظلام .

ورأى الرجل الغريب عجباً ، وشاهد ما لم يشاهده قبل ذلك ؛ فقد رأى - وهو على رأس شجرة ضخمة ، متينة الفروع ، تسلكها حتى يرقب ما يحدث من الشاب وغزلانه - رأى هذا

الشاب الآدمي ، بعد أن وصل إلى بقعة معينة من أرض الوادي ،
يفترش الأرض ذات العُشب فيرقد ، وترقد جميع الغزلان
حوله ، ثم لا يلبث أن يستسلم الجميع للنوم .

اندھش الرجل لما رأى ، وتعجب أشد العجب من أمر
الشاب ، الذي - لا شك - نشأ بين هذه الغزلان وهو يعتقد
أنه واحدٌ منها ، وقد لا يكون له علمٌ بوجود أناسٍ من بني
جنسه أبداً . . . ولكن كيف حدث هذا . . ؟ وكيف وصل إلى
هذا المكان . . ؟ وأين أهلُه وذووه . . ؟ ترك الرجل مكانه
من الشجرة ، ومضى نحو النهر ، فتوضأ ، وصلى صلاة المغرب ،
ثم جلس يدعو الله ، ويسبحه ، حتى آن وقت صلاة العشاء
فصلى ، ثم هيباً لنفسه مكاناً للنوم ، قُرب النهر ، غير أنه ما كاد يضطجع
حتى عاد إلى ذهنه أمرُ ذلك الشاب ، فأخذ يُفكر فيه ، واستغرق
التفكير في هذا الأمر من الرجل شطراً كبيراً من الليل ، ثم
قرر أن لا بد من تعريف ذلك الشاب بأصله ؛ من أنه آدمي ،
كرمه الله على سائر المخلوقات ، في البر والبحر ، وأنه ليس
غزلاً كما يعتقد ويتوهم ، لا بد من تعريفه بالله سبحانه وتعالى
خالقه وبارئه ، وحافظه .

لكن قبل هذا وذاك ، يجب تعليمه الكلام ؛ فالكلام هو
الوسيلة ، والواسطة لإيصال المعرفة إلى عقله ، وإيضاح
الحقيقة له . . .

وبعد أن فكر الرجل في كل هذا ، ووضع لكل أمرٍ
خُطته ، دعا الله أن يوقفه في كل ما اعترم عمله ، وأن يجعل
إيمان هذا الشاب ، ومعرفة بالله ، وتوحيده لخالقه ، على يديه . .
ثم استسلم بعد ذلك للنوم مطمئناً .

استيقظ الرجل عند الفجر ، فصلى ، ثم جلس يدعو الله ،
ويسبحه ، وبينما هو كذلك إذ رأى على البعد سرب الغزلان
يمضي نحو المرعى ، يتقدمه (محفوظ) ، ففكر أن يلحق به ،
ويدعوه للجلوس معه ، لكنه عاد ، فخشى أن ينفر السرب
لرؤيته ، فيغضب صديقه الشاب . . عند ذلك أثر العُدول
عن هذا الأمر .

(عبد الله)

كان أول عمل قرر أن يعملهُ الرجل ، هو أن يبني لنفسه
كوخاً ، يأوي إليه ، ويستظل به من حرارة الشمس ، ويحتمي
به من الرياح والأمطار ، والزوابع حتى يقيض الله له مخرجاً
من ذلك الوادي . .

فأخذ يجمع الأغصان ، وفروع الأشجار المتينة اليابسة . .
فلما تجمع لديه جزء منها ، شرع في حفر الأرض حُفراً
صغيرة عميقة ، ليثبت بها دعائم الكوخ ، وكان قد اختار من
الأرض مكاناً مرتفعاً ، قُرب النهر ليبنى عليه ذلك الكوخ ،
ثم بدأ في إرساء دعائم الكوخ .

وبينما كان الرجل منهمكاً في عمله ذاك ، إذ أحس بمن
يقف خلفه ، فالتفت ، فإذا بمحفوظ واقفٌ ينظرُ لما يفعلهُ
بتعجب شديد ، أفاق منه بعد فترة ، فتقدم نحو الرجل ، وقدم
له بعض حبات من الفاكهة ، تقبلها منه الرجل الشيخ ، وقال
له بعفويه ، ومن غير تفكير ، وقد فات عليه في تلك الساعة
أن الشاب لا يفهم معنى لما يسمع . . قال له :

— شكراً . . شكراً لك أيها الشاب الطيب . .

وبدت الدهشة على وجه (محفوظ) لدى سماعه صوت

الرجل ، وكانت تلك هي المرة الثانية التي يسمع فيها هذا الصوت ،
فجلس على الأرض ، وقد فغر فاه دهشة ، وأخذ ينظر إلى
فم الرجل ، الذي خرجت منه تلك الكلمات .

أما الرجل ، فقد تأكد لديه أن الشاب لم يسبق له أن سمع
قبل ذلك أحداً يتكلم ، ولا نطق هو قبل ذلك بكلمة واحدة .
فانتهر تلك الفرصة وأشار إلى ماء النهر ، وقال :

— ماء . . ماء . .

ثم دنا من الماء ، وأخذ بعضاً منه في كفه ، وأخذ يُردّدُ
الكلمة :

ماء . . ماء . .

وقضى فترة يطالعُ في وجهه (محفوظ) الذي أخذ يُحرّكُ
شفتيه ببطء ، ثم نطق بصوت خافت : ماء . .

وبدأ البشّرُ على وجه الرجل ، وأخذ يستحث محفظاً
بابتسامة تشجيع ، وهو يُردّدُ : ماء . . ماء . .

وبرقت عينا (محفوظ) ، وهو ينطق بأول كلمة تعلّمها . .
ونطقها هذه المرة بصوتٍ مسموع :

— ماء . .

وكم كان سرور الرجل ، وسعاده ، إذ سمع محفظاً ينطق
بتلك الكلمة ، فأمسك بعودٍ من العيدان ؛ وهو يقول :

— عود . .

وفي هذه المرة ، لم يتردد (محفوظ) كثيراً ، بل نطق
بالكلمة على الفور ، وأخذ يُردها من نفسه عدة مرات .

وما إن انتصف نهار ذلك اليوم ، حتى كان (محفوظ) قد
عرف وحفظ أسماء لعشرة أشياء ، وكان فرحاً سعيداً بهذا .

حتى اسمه ؛ فقد صار له اسم في ذلك اليوم ، غير اسمه
الذي أطلقناه عليه — مجازاً — من واقع حاله ، إذ حفظه الله ؛
فأسميناه محفوظاً . ولما كان الرجل لا يعرف له اسماً ، ولا كان
هو قد سمى نفسه باسم ؛ لذلك فقد أطلق عليه الرجل اسم
(عبد الله) وعرف (محفوظ) اسمه الجديد ، وحفظه ،
وأجاد نُطقه ، فصار يُشير إلى نفسه بإصبعه ، ويقول : . .
(عبد الله) أو يشير إلى الرجل ، بعد أن عرفه باسمه ، وحفظه
إياه ، ويقول :

— صالح . .

وذلك كان اسم الرجل .

ونشأت ألفة عظيمة بين الشيخ (صالح) و (محفوظ) ،
الذي أصبح اسمه (عبد الله) ؛ فقد وجد كل منهما في الآخر
خير أنيس له في وحدته .

وحينما حل مساء ذلك اليوم ، لم يكن صالح الشيخ قد أتم
بناء الكوخ بعد ، كان ما يزال يجمع بعض أغصان الشجر الرفيعة ،
ليضع منها السقف ، وكانت الشمس قد أخذت تميل نحو المغيب ،
وفجأة هب (محفوظ) واقفاً ، وقال ، وهو يُشير إلى صدره
إصبعه ثم يشير نحو مكان الغزلان :

— عبد الله . . . غزال . . .

وكان قد تعلم ضمن ما تعلم من الشيخ صالح كلمة غزال . .
قال (محفوظ) هذا ، ثم مضى صوب المكان الذي اعتاد
أن يقضي فيه الليل مع الغزلان .

أما صالح ، فلم يعترض سبيله ، أو يمنعه من الذهاب ،
فقد كان رجلاً حكيماً ، يُرجي كل أمرٍ من الأمور لوقته .

ومضى يومان آخران ، واكمل بناء الكوخ ، على صورة
جميلة ، متينة ، وكان (محفوظ) يساعد صالحاً فيجمع له
العيدان ، ويحمل معه كتل الحطب ، بينما لم يدع صالح فرصة
تمضي دون أن يعلمه فيها كلمة جديدة ، حتى أصبحت حصيلة
من الكلمات طيبة .

كان (محفوظ) في تلك الأيام الثلاثة يقضي كل نهاره مع
الشيخ صالح ، يعاونه ، ويتعلم منه الكلام ، وما أن يحل المساء
حتى يغدو إلى حيث ترقد الغزلان ، فيبيت بينها ، كما اعتاد .

أما في ذلك المساء ، وحينما هب (محفوظ) واقفاً ، وهو
يهم بالذهاب إلى حيث ترقد الغزلان ، أمسك به الشيخ صالح
من يده — برفقٍ — وقال له :

— أنت ترقدُ هنا في الكوخ .

وكرر الشيخ صالح العبارة عدة مرات ، حتى فهمها (محفوظ)،
فبدأ العجب على وجهه ، وصمت فترةً طويلة ، وأخذ ينظر
إلى الجهة التي ترقد فيها الغزلان وهو حزين كئيب ، ثم التفت
إلى الشيخ صالح ، وأخذ ينظر إليه وهو يفكر ، وكأنما هموم

الدنيا كلها قد تجمعت في نفسه ، ثم جال ببصره في أرجاء الكوخ ، وقلب بصره بين جدرانته ، وفي النهاية ، ألقى نظرة حانية في اتجاه مرقد الغزلان ، ثم جلس على أرض الكوخ وهو متردد بعض الشيء .

في تلك الليلة ، حدثه الشيخ صالح عن الفرق بين الإنسان والحيوان ، والفرق بين الطائر والغزال . .

وتقدم الليل ، فنام صالح ، أما (محفوظ) فقد قضى شطراً كبيراً من الليل وهو ساهرٌ ؛ فالمكان غريب عليه ، إذ كانت تلك أول ليلة يقضيها تحت سقف منذ أن وعى عقله الحياة .

وأخذ (محفوظ) يستعيد في ذهنه حديث الشيخ صالح ، فيستوعب إدراكه منه بعضاً فيدركه ، ولا يفهم لبعضه الآخر معنىً فيترك التفكير فيه .

الصَّلاة

استسلم (محفوظ) للنعاس ، آخر الأمر ، ثم أخذ للنوم ،
فنام نوماً عميقاً ، لم يستيقظ منه إلا في الثلث الأخير من الليل . .
استيقظ على حركة خفيفة ، فقد كان يقطاً كثير التنبه وهو
نائماً ؛ ما إن تحدث حركة في ما حوله ، حتى يتنبه ، ويهبط
من رقاذه ؛ فتلك كانت عادته ، ولعلها عادة اكتسبها من عيشه
مع الغزلان ، ونشأته بينها.

. . استيقظ . . وفتح عينيه ، ودار بهما بحثاً عن مصدر
الحركة ، حتى استطاع — وعلى شعاعات ضوء القمر القليلة
التي كانت تتسرب للكوخ من بابه — أن يتبين ما يحدث ، فقد
كان الشيخ صالح في تلك الساعة يصلي ، أما (محفوظ) ، فلم
يستطع أن يفهم شيئاً من هذا الذي يحدث أمامه ، إذ كانت
تلك أول مرة يرى فيها الشيخ وهو يصلي ، ولم يفهم من تلك
الحركات إلا أنها حركات غريبة .

تعجب (محفوظ) مما رأى ، واعتقد أن ما يفعله الشيخ
صالح إن هو إلا لهو ، يقوم به الشيخ ، كما كان يلهو هو أحياناً
مع الغزلان ، أو بمفرده ، فيقفز ، ويجري ، ويأتي ببعض
الحركات الأخرى .

لم يشغل (محفوظ) باله كثيراً بما رأى ، بل انقلب إلى جنبه

الآخر ، ونام ، ولم يُعِر الأمر اهتماماً كبيراً . .

ولكن عندما استيقظ عند الفجر ، وكان ضوء الفجر يغمر الوادي ، رأى على ذلك الضوء — الشيخ صالح ، وهو يقوم بنفس الحركات ، فقد كان الشيخ في تلك الساعة يؤدي صلاة الفجر .

وقف (محفوظ) يتأمل وجه الشيخ ، وعلى الرغم من أن عقله لم يستوعب ما يفعله الشيخ ، وأنه لم يكن يدرك ، أو يعرف شيئاً مما يحدث أمامه ، إلا أنه أحس في قرارة نفسه ، وهو يطالع في وجه الشيخ ، أن ما يفعله الشيخ هو فعل "طيب" ، وليس فعلاً سيئاً ، أو ضاراً وليس لهواً كما اعتقد في أول الأمر .

أحس (محفوظ) بكل هذا بفطرته ، بل قرأه في وجه الشيخ ؛ في نظراته ، وقد كساها الرجاء والأمل ، وهو يدعو الله في دعة وسكينة وهدوء ، أكسبت ملامح وجهه ، وهو واقفٌ بين يدي الله بهاء وهيبة ، وجلالا . . كان (صالح) في تلك اللحظة يدعو ربه في أمل ، وفي ثقة بالاستجابة ، وقد رفع كفيه في رجاء وذلة . . فكان لكل هذه الأفعال الرصينة الخاشعة تأثيرها في نفس (محفوظ) . . ووقع في قلبه — مما رأى — ما لم يقع له قبل ذلك ، فهو لم يمارس في حياته سوى الأكل والشرب ، والنوم . . ثم تلك اللحظات القليلة من التأمل في الشمس وفي بعض الموجودات من حوله . .

وكان تأمله وتفكيره في الشمس أو العواصف أو المطر أو الصواعق ينتهي دائماً بالخوف والفرع ، خوفاً يبدد عليه سكينته نفسه ويزعجها . أما هذا الرجل . .

وفكر (محفوظ) ، وقال في نفسه : لعله يقف الآن يفكر مثلي في قوة الشمس ، وسطوتها ، وجبروتها ، ولعله يخشاها . .

ولكن . . وأعاد (محفوظ) النظر إلى وجه الرجل ، فوجده هادئاً مطمئناً ، لا يبدو عليه الخوف أو الجزع ، بل يبدو عليه الاطمئنان ، والسكينة ، والسلام ، إذن . . ماذا يفعل يا ترى . . ؟

وتقدم (محفوظ) ، حتى وقف في قبالة الشيخ وهو يصلي ، وأخذ يشير بيديه ، ويردد بعض الكلمات ؛ كان يسأل الشيخ بتلك الحركات ، وبالكلمات القليلة التي تعلمها والتي لم تكن تُعبرُ تماماً عما يقصد .

ولكن الشيخ لم يجب على إشارات (محفوظ) ، ولا على تساؤلاته على الرغم من أنه فهمها ؛ فقد سأله عن وقفته تلك ، وماذا يفعل . . فلما لم يجب ، سأله مرةً أخرى :

— هل أنت غاضبٌ مني . . ؟

لم يكن في مقدور الشيخ صالح ، وهو يقف موقفه ذاك من الصلاة ، أمام الله عز وجل ، أن يجيب على تساؤلات (محفوظ) ، على الرغم من أنه فهم أسئلته .

ولكن ما إن أنهى الشيخ صلاته حتى التفت إلى (محفوظ) ، وأجاب عن سؤاله الأول ، مستعيناً ببعض الكلمات التي يعرفها محفوظ .

كانت إجابة الشيخ غير واضحة المعنى بالنسبة لمحفوظ الذي أخذ يكثر من الأسئلة ، يستفهم بها ، ولكن كلمة واحدة

ومهمة في إجابات الشيخ لم يستطع (محفوظ) أن يفهمها باللفظ ،
أو بالإشارة ، تلك هي كلمة (صلاة) .

وحينما قام الشيخ صالح واقفاً راکعاً ساجداً يصلي الظهر ،
كان (محفوظ) يفعل مثل فِعْلِهِ من غير أن يُدرك لما يفعل معنى .

قرر الشيخ صالح في ذلك اليوم أن يقوم بتعليم (محفوظ)
بعض الكلمات التي تُعَيِّنُهُ على تعلُّم أمور الدين . وفي ذلك اليوم
نطق الشيخ امام (محفوظ) بكلمة : « شمس » ، وهو يشير إليها .
وكررها عدة مرات ، فكررها (محفوظ) وهو خائفٌ ، ثم كلمة
« سماء » وكلمة « نهار » وكلمة « خوف » ، و « أمان » . . وعلمه
كذلك مدلولات الألفاظ للأفعال ، كالوقوف والجلوس ،
والركوع ، والسُّجود .

وبعد ثلاثة أيام ، كان (محفوظ) قد تعلم كل ما كان يودُّ
الشيخ أن يعلمه إياه من كلمات ، وكان يكررها باستمرار ،
وهو يشير إلى المسميات ، وكان من أسعد اللحظات لديه ، عندما
يجلس إلى الشيخ ، ويكرر ما تعلمه من أسماء الأشياء الموجودة
حوله ، ويقوم بحركات وهو ينطق بالكلمات الدالة عليها ،
ويراقب علامات البشر على وجه صالح (الشيخ) . وكان يبدأ
ذكر الأشياء بنفسه وبالشيخ ، فيقول ، وهو يمدُّ أصبعه يشير
به إلى صدره (أنا . . عبد الله) ، ثم يشير إلى الشيخ ، ويقول :
(أنت . . صالح) ، ثم يمضي في ذكر أسماء الأشياء ، وهو
يشير إليها فرحاً سعيداً : — سماء — نبات — ماء — حيوان —
غزال — شجرة . .

حينما تأكد الشيخ واستوثق من أن محفوظاً قد عرف كل

أسماء الأشياء الموجودة حوله ، وكل أسماء أعضاء جسده من يد ورأس وقدم وعقب . . . ومدلولات الأفعال من قيام وقعود وغيرها ... عند ذلك ، أخذ في تعليمه التخاطب بحُمل ذوات معان مفيدة ، كاملة التركيب . . حتى أصبح بعد مضي شهر - تقريباً - قادراً على التعبير عن رغباته ، ومكونات نفسه ، فأصبح يقول مثلاً : (أنا أريد أن أذهب) ، (الغزال نائم) (أنت تجلس داخل الكوخ) . . إلى غير ذلك .

وهكذا أصبح التفاهم بين (محفوظ) والشيخ صالح ميسوراً ، بل لم يعد الشيخ يشعر بفارق كبير في مخاطبة (محفوظ) ومخاطبة غيره ممن ترك هناك من أهل في موطنه الذي قدِم منه .

وترك (محفوظ) الانشغال بأمر صلاة الشيخ صالح ، بل أصبح حال الشيخ صالح وهو يصلي مألوفاً لديه ، ولو أنه لم يكن يفهم لها معنى ، أما صالح فقد كان يُرجيُّ توضيح أمور كثيرة (محفوظ) لليوم الذي يستطيع فيه عقل (محفوظ) إدراك تلك الأمور .

وفي ذات ليلة ، وبينما كان الشيخ صالح يجلس أمام الكوخ وكان يجلس بجواره (محفوظ) ، وكان القمر في ليلة تمامه ، ظهرت بعض الغزلان في مكان مكشوف ، بالقرب من النهر ، وأخذت تقفز وتلعب ، فرحة مريحة ، عندئذ قال (محفوظ) :

- تفرح الغزلان بهذا القمر . .

وأشار نحو القمر ، ثم استأنف حديثه :

- والشجر أيضاً يكون لونه جميلاً ، وماء النهر يتغير لونه ، فيلمع ، ويصبح جميلاً . . جميلاً . . إنه يصنعها جميعاً . .

تعجب الشيخ عندما سمع عبارة (محفوظ) الأخيرة ،
وسأله باندهاش :

— من يصنعها . . ؟

محفوظ : القمر هو الذي يصنع الأشياء الجميلة ، والشمس أيضاً
تنبت النبات ، وتظهر بالليل أحياناً فتحرق الشجر
عندما تسقط عليه . .

صالح : ما هذا الذي تقوله يا عبد الله ؟

محفوظ : هذا ما أعرفه تماماً . . فحينما كنت صغيراً ، كنت
أظن أن القمر هو الذي صنع الأشياء جميعها ، لذلك
كنت أفرح حينما يظهر ، وأراه ، وأمرح لأن
العزлан أيضاً تفرح حين تشاهده يظهر ، وكنت أتمنى
ألا أنام في تلك الليلة ، بل أود لو أقضيها كلها أنظر
إلى هذا الشيء الجميل المعلق في السماء . . فإذا ما غلبني
النعاس ، فنمت في تلك الليلة ، نمت وأنا سعيد
مسرور مغتبط . . ولكن في بعض الليالي ، كان القمر
يختفي ؛ ويغيب لعدة ليال ، فلا يظهر ، ويصيني
في تلك الليالي اكتئاب شديد ، وحزن لافتقاده .
أحسَّ الشيخ صالح أن الفرصة قد حانت لإفهام
(محفوظ) حقيقة الكون ، وخالقه ، وموجده ،
فقرر أن يجاريه في أول الأمر ، فسأله :

صالح : ولماذا تحزن لافتقاد القمر يا عبد الله . . ؟

محفوظ : لأنه هو الذي يهني انشباط ، إذن فهو الذي يهني
الحياة ، والقوة . .

صالح : وحينما يغيب القمر ، هل يموت الشجر والحيوان ؟
وهل تفقد أنت الحياة أو القوة والنشاط . . ؟

محفوظ : لقد فكّرت في هذا ، عندما كبرت قليلاً . . .

صالح : فماذا وجدت . . ؟

محفوظ : وجدت أنه لا فرق - في حالتي - في ليلة يطلع فيها القمر ، وليلة لا يطلع فيها ، غير السرور والمرح ، أما القوة والحياة ، فلا تختلف في الحالتين ، وعند ذلك قلت في نفسي : إذن فالقمر لا يملك قوة يغيّر بها حاله ، ما دامت قوتي هي قوتي ، وحياتي هي حياتي ، وزال - حينئذ - من نفسي الخوف من القمر ، وزالت رهبتي منه ، فهو لا يملك أن يهني شيئاً ، أو أن يسلبني شيئاً ، أو يضرني ، أو يقتلني . . وقضيت تلك الليلة أفكر في كل هذا ، فلم أنم معظم الليل ، وفي الصباح لم توقظني إلا أشعة الشمس ، وحرارتها ، فاستيقظت وأنا أتألم من حرارة الشمس ، وكانت جميع الغزلان - ساعتئذ - قد ذهبت للمراعي وفتحت عيني ، وواجهت بهما الشمس ، فلم أستطع أن أنظر إليها ، وكانت أشعتها قوية ، ووجهها صاخباً ، ولم أستطع أن أركز عليها بصري ، فقلت : - إذن ، هذه القوية ؛ هذه الشمس العاتية ، الجبارة ، القوية ، الكبيرة ، التي هي أقوى من كل الكائنات ، هي التي تصنع الكائنات ، أما القمر فيصنع الجمال في بعض الليالي . . .

أما الشمس — يا سيدي — فهي القوة ، هي التي
تصلينا بنارها ، وهي التي تنبت الزرع ، وتُدفيء
الجو ، وتسقط على الأرض أحياناً ، فتحرق الشجر
وما حوله . . وهي قبل أن تفعل ذلك تدوي في السماء
بصوتٍ قويٍّ . .

صالح : تُدوي . . ؟ أيُّ دويٍّ هذا . . ؟

محفوظ : إذا اختفت الشمس وراء السحب ، نزل الماء من
السماء ، وتسمع للشمس دويّاً مرعباً وحاداً . .

صالح : تقصِدُ الرعد — يا محفوظ ؟

محفوظ : لم أسمع منك هذه الكلمة قبل ذلك ، أهذا الصوت
الذي أسمعُه من الشمس اسمه الرّعد ؟

صالح : نعم هو الرعد . . . ولكنه ليس هو صوت الشمس
كما تعتقد . . .

محفوظ : إنه صوتها . . فهو يأتي بعد أن يلمع نورها القويُّ بين
السحاب ، وأحياناً تسقط على هذا الوادي ، فتحرق
الأشجار . . وتدمر . . وتقتل . . إنها قوية ، وإني
أراك أنت أيضاً ، تقف وتتحدث إليها ، دوماً ، عند
الصباح ، وتناجيها قبل شروقها ، وبعد غروبها ...
أنت أيضاً — يا صالح — تطلب منها الأمان ، والرحمة
ولا تتحدث إليّ ، أو نجيب على أسئلي حين أسألك ،
خوفاً منها ، وتأتي — كما رأيتك قبل قليل — بتلك
الحركات . .

صالح : إنني - يا عبد الله - حينما أقفُ ، ولا أتحدثُ إليك ،
وأناجي ، فإنما أناجي ربِّي الله . .

محفوظ : الله . . ؟ ! إنك لم تعلمني هذه الكلمة أيضاً . .
من هو الله . . ؟

صالح : الله هو خالق كل شيء . . . خلقتني ، وخلقك
يا عبد الله ، أوجدك من عدم . . . الله هو الذي خلق
الإنسان ، والحيوان ، والنبات . . . وهو الذي خلق
الليل والنهار . . والشمس والقمر ، وسخرهما لنا ،
هو الذي خلق السماوات والأرض ، وأنزل لنا من
السماء ماءً - هو المطر - الذي ذكرته يا عبد الله . .
وأخرج لنا من الأرض النبات . .

الله الذي ينزل المطر لترتوي الأرض ، وينبت النبات . .
وفي المطر حياة الأرض ، ومن عليها من إنسان
وحيوان . . . والرعد هو الصوت الذي تسمعه مع
المطر . .

محفوظ : أتعني صوت الشمس خلف السحاب ؟

صالح : صوت الرعد لا يأتي من الشمس ، بل من السُّحب
التي خلقها الله وأنشأها ، وساقها ، وسخرها . . .
فالله هو الذي ينشيء السحاب الثقيل التي تراها في
جو السماء . . . والرعد يأتي منها تسبيحاً بحمد الله على
نعمته على أهل الأرض . . وما تفضل به عليهم من
ماء يكون سبب خير لهم ، فيسبح الرعد بحمده . . .

محفوظ : إنك تقول لي اليوم كلاماً لا أفهمه . . يسبح هذي

كلمة لا أفهم معناها . . . وكلمة خلق والحمد . . .
إنني لا أكاد أفهم شيئاً مما تقول — يا سيدي . . .

فكّر الشيخ صالح ، وقرر أن يمضي في حديثه ،
مُجَمَّلاً وليفهم منه عبد الله ما يفهم ، لعلّه من خلال
هذا يستطيع أن يحو من عقله بعض ما استقرّ به
من فهم خاطيء للكون ، ثم يعود بعد ذلك فيوضح
له كل أمر في وقته على حدة .

قال (محفوظ) : وضوء الشمس الذي نراه بين
السحاب بالليل ، ما هو . . ؟

صالح : إنه ليس ضوءها . . إنه البرق . .

محفوظ : البرق . . ؟ ! ! هذا الضوء عند المطر . . يسمى
البرق . . ؟

صالح : نعم . . إنه البرق . . يرينا الله إياه خوفاً وطمعاً . . .

محفوظ : طمعاً . . ؟ ما معنى طمعاً . . ؟

صالح : يعني أَمْلاً وعشماً في الله ورحمته . . ؟

محفوظ : وكيف نخاف ونأمل . . . ؟

صالح : نخاف من البرق لأن الصاعقة التي تسقط على الأرض
وتحرق الشجر وكل ما يصادفها تعقب البرق دائماً . .
وتأتي بعده مباشرة . . .

ونطمع ونأمل في رحمة الله ، في المطر الذي يصحب
البرق . . . نطمع أن ينفعنا الله بذلك المطر الذي

ينزله . . فتنبت الحشائش والنباتات وترتوي الأشجار ،
فتخرج الثمار التي نأكلها — يا عبد الله والحشائش
للحيوان . . ويسيل الماء . . فتجري المياه في الأنهار . .

محفوظ : الله هو الذي ينبت الحشائش للغزلان أيضاً . . ؟
ما هذا الذي تقوله — يا سيدي — ؟ بل الشمس هي
التي تفعل ذلك حينما تختفي تحت الأرض بالليل .

صالح : الله هو الذي ينبت النبات ، ويخرج الثمرات لتأكل
منها أنت ويأكل منها الحيوان ، وكل مخلوق ، الله
الذي خلقنا وخلق الحيوان ، خلق لنا النبات والثمرات ،
وأنزل لنا الماء ليطعمنا جميعاً ، ويسقينا . .

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ،
وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » .

لا تغيب عنه غائبة . . الله هو الذي يحيي ، ويميت . .
يعلم بكل ما يحدث في السماء والأرض ، لا تغيب
عنه غائبة في السماء ولا في الأرض . . ذلك يا أخي
هو الله رب العالمين . .

اقرب (محفوظ) من الشيخ صالح ، وهو منبهر
بما سمع ، مندهش متعجب ، وقال له :

أعبد عليّ — يا سيدي — كل ما قلته ، إنّه قول
عجيب ، من أين أتيت بهذا الحديث . . ؟ فقد مضى
زمن طويل منذ أن عرفتك ، في ذلك اليوم الذي
وجدتك فيه — هناك — عند البحر ، ولكنك لم تحدثني
 يوماً بمثل هذا الحديث .

قال الشيخ صالح — (محفوظ) : لقد آن الأوان
لأحدثك ، فانتبه ، لأنَّ هذا الذي سأقول لك ،
يتطلَّب منك الانتباه ، والتفكير . .

محفوظ : قلْ ، فقد شوقَتي .

صالح : يا عبد الله — منذ أن نشأت في هذا الوادي ، هل
لاحظت أنَّ يوماً لم يكن له نهارٌ أو ليلٌ . . ؟

محفوظ : لا ، فالليل يعقبُ النهارَ ، والنهارَ يعقبه الليل . . .

صالح : هل حدث أن تكرر النهار مرتين ، متتاليتين ؟
أو تكرر الليل مرتين متتاليتين . . ؟

محفوظ : لا . . لم يحدث هذا . . .

صالح : الشمس والقمر في دورانهما ، هل حدث أن اختلفا ؟

محفوظ : لا ، لم يحدث ، فالشمس تطلع بالنهار ، والقمر
بالليل أحياناً ، وأحياناً يختفي ، ولكنه لم يطلع بالنهار
قط . . والشمس أيضاً ، لا تطلعُ بالليل إلا في تلك
الليلة . . .

صالح : آيةٌ ليلة تعني ؟

وقصَّ (محفوظ) على صالح ما حدث وشاهده في
تلك الليلة العاصفة الممطرة التي سقطت فيها العاصفة
على الوادي .

قال له صالح بعد أن سمع القصَّة :
— إن الذي سقط فأحرق الشجر والنبات ليس هو

الشمس ، فتلك كانت صاعقة ، نار هبّطت من السحب
فأحرقت الشجر . .

محفوظ : إذا كان الأمر كما ذكرت ، فالشمس لا تطلع إلا
بالنهار ، كما أن القمر يطلع بالليل . . .

صالح : بعض الغزلان تُولد ، وبعضها يموت . . .

محفوظ : نعم هذا صحيح . .

صالح : تُرى من يتحكم في هذا كله وينظمه يا عبد الله . . ؟

محفوظ : لست أدري . . إنما كلُّ هذا يحدث وحسب . .

صالح : وهل يحدثُ فعلٌ من غير فاعلٍ - يا عبدَ الله ؟ هل
يتحركُ شيءٌ من غير أن يحركه أحد ؟

محفوظ : لا . . فكل حركة لا بد لها من محرك . . وكل فعل
لا بدَّ له من فاعل . .

صالح : الله هو الذي يُحرك كلَّ هذه الأشياء . . وهو الذي
خلقها . .

محفوظ : هل خلقتني أنا . . ؟

صالح : نعم ، الله خلَقَكَ ، وهو خالقُ كلِّ شيءٍ ، خلَقَكَ
وأنت في بطن أمك . .

قال محفوظ مقاطعاً :

أُمِّي . . ؟ لقد كنت في بطن غزالةٍ مثل صغار الغزلان ،
ثم خرجتُ ، وكبرتُ . .

صالح : إن أمك ليست غزالة يا عبد الله - بل هي إنسانةٌ
مثلك ومثلي ، حملتك في بطنها كما تحمل الغزالة ،
ثم وضعتك صغيراً ، ضعيفاً مثل صغار الغزالان ...

محفوظ : أنا ... ١٩... لي أمٌ تشبهني !!٩..

صالح : نعم ، لك أمٌ ، ولك أبٌ . . وهناك أعدادٌ كبيرةٌ
من بني الإنسان مثلك . . يتوالدون كما تتوالد هذه
الغزالان .. قد جعل الله منهم الآباء والأبناء والحفدة ..
يعني أبناء الأبناء ..

محفوظ : وأين هم هؤلاء المخلوقات ؟

صالح : إنهم الناسُ . .

محفوظ : هل هذا هو اسمهم ؟

صالح : نعم ، الواحد منهم إنسانٌ . .

محفوظ : أنا إنسانٌ ؟

صالح : أنت إنسانٌ ، وأنا إنسانٌ . . كلُّنا أبناءُ لآدم .

محفوظ : ومن آدمُ ؟

صالح : آدم هو أبُ البشر جميعاً . . أولُ إنسان خلقه الله ،
وكرمه . . ثم خلق حواءَ أمنا . . فولدا وتوالدا
أبناؤهما ... ونحن من أبنائهما ... فأنت ابن آدم ..
ولست غزالاً ، ولا حيواناً آخر . . .

محفوظ : وأين هم هؤلاء الناس . . ؟

صالح : إنهم هناك ، في أماكن كثيرة غير هذا الوادي . .
هناك وراء البحر ، وراء هذه الجبال .

محفوظ : ما كنت أعتقد أن هناك من يشبهني من المخلوقات ..
وحتى حينما رأيته أول مرة . . تعجبت أشد
التعجب ، وقلت في نفسي : ها هو مخلوق آخر
يشبهني . . أما أن يكون هناك كل هذا العدد من
المخلوقات . . من الناس التي تشبهني . . فهذا أمر
عجيب . .

صالح : لو أراد الله لنا أن نخرج من هذا المكان لرأيت من
بني آدم أعداداً كبيرة . .

سرح (محفوظ) بخياله ، لعدة لحظات ، ثم عادَ
ليقول لصالح :

— حدثني يا صالح عن خالق الأشياء ، ومخترعها ،
وحدثني عن نفسي وكيف . .

وصمت (محفوظ) فجأة ، وكاد يبكي ، وهو
يقول :

— كيف لا أكون من هذه الغزلان . . لقد نشأت
بينها ، وأنا أعتقد أنني واحدٌ منها . وأنَّ واحدةً
منها ولدته . . .

صالح : يا عبد الله ، أيُّها الإنسان ثق إنه لم تلدك غزالة ،
ولعلك كنت هنا قبل أن تعي ، أو تعلم من أمر نفسك
شيئاً ، فالله أخرجك من بطن أمك لا تعي شيئاً ،

الله أوجدك وكرمك وفضلك على سائر المخلوقات ،
الله خالق الكون ، هو الذي خلقك . . وخلق كلَّ
شيءٍ من أجل الإنسان . . وجعل الحياة سهلة بالنسبة
للإنسان ، إذ جعل له العقل الذي يفكر به ، واليد
يعمل بها ، أنظر إلى يدك — يا عبد الله — هل للغزاة
يدٌ مثلها . . إنك تستطيع أن تفعل بيدك كلَّ شيءٍ ،
والغزلان والطير لا يستطيعون ، إذنُ فالله فضلك
عليهم ... وعقلك الذي يعمل باستمرار ، ويدُّلك
على ما ينفعك . . وهذا الاسان الذي تنطق به ، هل
تستطيع الغزاة أن تنطق مثلك . . ؟

الله سخر لنا كل شيء ، الأشجار نأكل من ثمارها ،
ونستظل بظلها ، ونبني من فروعها وسيقانها السكن
الذي نأوى إليه . .

والله الذي جعل لنا الشمس ضياءً ، والقمر نوراً ،
وجعل لنا النهار والليل ، النهار لنبحث فيه عن الرزق ،
والليل لننام فيه ، ونستريح من عناء النهار ، وفيه
نستريح عقولنا . . .

من يُنزِّل الماء من السماء ، فيجري في هذا النهر
لتشرب منه أنت والغزلان ، وكل المخلوقات التي
في هذا الوادي ، فلا تتألم من العطش ، أو تموت
ظمأً ... من ينزِّل هذا الماء لِيُسَبِّت به الشجر الذي
تأكلُ أنت منه الثمر ... ؟ من ينبت العُشب الذي
تأكل منه الغزلان فتشبع ، وتنمو أجسامها ، وتقوى ،
وتكبرُ ، وتزيدُ ؟ .. ثمارٌ طيبةٌ ، متنوعةٌ ، حلوةٌ

المذاق ، تأكل منها أنت فلا تضرُّك ، بل تفيدك ،
وتقويك ، والأعشاب تأكل منها الغزلان ، فتشبع ،
وتقوى ، وتشفى . . .

من صنع كل هذا ؟ ومن يفعل كل هذا . . ؟
لا بد أن هناك من يصنع ، ويفعل كل هذا . . لا بدَّ
أن هناك من ينزل الماء من السحاب بقدر ، بكمية
محدودة تملأ هذا النهر . — يا عبد الله — ، ولا تزيد ،
وإلاَّ أغرقت الوادي ، ماءً يسقي الشجر والعشب ،
فلا يزيد وإلاَّ أغرق الشجر والعشب فمات جميعه
بسبب كثرة الماء ، وتلفت ثماره ، وماتت ، فلا تجد
أنت ما تأكله منها فتموت أيضاً ، من ذا الذي يحفظ
الحياة لك وللحيوان والنبات . . ؟ لا بدَّ — يا عبد الله —
أن هناك من يفعل ذلك . . ؟ ذلك هو الله . . الله خالقُ
كل شيء بمقدار ، وهو ربُّ رؤوف رحيم ، خبيرٌ
بما يحتاجه كل مخلوق ، عطوف بك ، وبكل المخلوقات
ربُّ لا يغفل عن شيء ، ولا يغيب عنه شيء في
السماوات ، ولا في الأرض ، مهما صَغُرَ ولو كان
بوزن الذرة الصغيرة وحجمها :

« إِنِّهَا إِن تَكُ سَقَالَ حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ ،
فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
يَأْتِي بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

هذا الغزال الصغير ، الذي تراه يخرج من بطن أمه ،
من صنعه يا عبد الله ؟ وجعل له عَيْنين وصورة في
هذه الصورة الجميلة . ؟

هل صنعته أمّه ؟

أنت تعرف - يا عبد الله - أنّ أمّه لا تستطيع أن
تصنع شيئاً . .

إذن ، من صنّعه ؟

هل صنّع نفسه ؟

فكّر يا عبد الله ... لا بدّ من صانع لكل هذا ،
الشمس لا تصنعُ ، والقمر لا يصنعُ ولكنّ هناك
رباً يصنعُ ، ويخلقُ ، هو الله ؛ خلّقتك في بطن
أمّك . .

قال محفوظ ، وكأنّما يحاول أن يثبت لنفسه حقيقة :

- إنّ أمي ليست غزاة . .

صالح : إنّ أمّك ليست غزاة . . أمّك إنسيّة ، وأنت
إنسان .

أتذكّر يوم أن حدّثتك عن الفرق بين الإنسان وغيره
من المخلوقات . . أنت إنسان ، وأمّك إنسان مثلك ،
خلّقتك الله في بطنها ، كما يخلقُ ابن الغزاة في بطن
أمّه . . .

محفوظ : أالله خلّقتني في بطن أمي ؟ ! !

صالح : نعم خلّقتك داخل بطنها وظلامها ، خلّقتك من
بعد خلّقي . . .

محفوظ : ما معنى هذا . . ؟ كيف الخلّقت من بعد الخلّقت ؟

صالح : لقد كنت قطعة دم صغيرة ، في بطن أمك ، خلقها الله ، ثم خاق منها عظامك هذه ، ثم كسا العظام لحما ، ثم أشأ من هذا اللحم الأعضاء جميعاً . . . وأكمل خلقك إنساناً كاملاً سوياً وجعل لك السَّمْعَ ، والبصرَ والفؤادَ ، حتى تعي كل شيء ، وتميز بين الخير والشر وبين الحق والباطل ، جعل لك العقل ، الذي هو أهم فارق بينك ، وبين بقية المخلوقات ، إليه تصلُّ معاني كل الأمور ؛ كل أمر تراه أو تسمعه ، أو تحسُّه ينتهي إلى العقل ، فيفهمه ، وتأخذ أنت منه انبصرة . . . العقل يصلُّ إليه كل ما تسمعه الأذنان ، أو تبصره العينان ، أو يحسُّه أيُّ عضو في الجسد . . . الله خلق للإنسان هذا العقل . . . وكلما تعلَّم الإنسان علماً ، أو تفوَّق عن طريق العقل ، فالفضل يرجع لله الذي خلق العقل وأبدعه . .

صمت صالح للحظةٍ ، ونظر إلى وجهه (محفوظ) ، وقال له :

صالح : إحمد الله ، يا عبد الله ، قل الحمد لله الذي جعلني أعرف الكلام وأفهم الألفاظ . قل الحمد لله . .

محفوظ : الحمد لله . .

صالح : نعم ، الحمد لله ، فهو الرَّبُّ الحافظ ، الذي لا يغفل عن خلقه ، ولا ينام ، ولا ينعس ، ولا يموت ، ولا ينسى ، ولا يسهو ، يقوم على كل أمر :

« الله لا إلهَ إلاَّ هوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ

سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ .

محفوظ : لقد كنت في جهل عظيم ، حين كنت أعتقد أن
الشمس إذا غابت بالليل تختفي تحت الأرض ،
لتُنبِت النبات ، لأنني كنت ألاحظ عند الصباح أن
بعض النباتات الصغيرة قد نمت بالليل .

صالح : الشمس ، والقمر ، والمطر ، والأرض ، كلها من
مخلوقات الله سخرها لخلقها ، وجعل لها نظاماً وقوانين .
ومقادير .

فالشمس والماء والتربة مع البذرة ، تُنبِت الزَّرع بإذن
الله . الله هو الذي يُسَخِّرُهَا . . وكما جعل الله نزول
المطر بمقدار ، جعل — كذلك — حرارة الشمس
بمقدار ، لا يقتلُ النباتَ ، ولا يضره ؛ فهو قد
جعل كلَّ شيءٍ بمقدار .

محفوظ : هل يُشرف الله على كلِّ شيءٍ . . . ؟

صالح : إنَّ كلَّ ما يحدث ، من نبت نبات أو ولادة مخلوق
أو موته ، أو أيُّ أمرٍ آخرٍ صغيرٍ أو كبيرٍ ، إنما هو
مُسَطَّرٌ ، ومكتوب عند الله ، قبل أن يحدث ، بل
قبل أن يخلق الله المخلوقات جميعاً ، الله أرادَ ، وقدَّرَ
وأمرَ بأن يكون كلُّ هذا فكان . . حسب مشيئته ،
وليس هناك جديدٌ . .

فما يحدث جميعه الآن ، وفي كل لحظة ، وفي كل
لمحةٍ ، إنما هو في علم الله قبل حدوثه . . فالله محيطٌ

بكل معلوم ، ولا يحدث شيء من غير إرادته ،
ولا تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عنه مثقال ذرة ،
في السموات ، ولا في الأرض ، بل قد أحاط بكل
شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً .

محفوظ : إذن فكل شيء منظم مرتب . . . ؟

صالح : نعم ، فالماء يتزل على الأرض فيجد البذرة في التربة
الصالحة ، فينبت النبات . . .

ولكن من ساق الماء إلى الأرض ؟ ومن أنزل من
السماء ماءً ليُخرج به كل هذا النبات المنوع الجميل
وتلك الثمار الحلوة الطيبة ؟ إنه الله ، يا عبد الله . . .

محفوظ : أنت تدعوني عبد الله . . فما معنى عبد الله ؟

صالح : أنت عبد الله ، يعني مملوك لله ، الله هو الذي خلقك ،
وأوجدك ، ولم تكن موجوداً ، وهو الذي يمتك ،
متى شاء ، وهو يسلط عليك المرض إذا شاء ، وهو
الذي خلق لك الطعام فأطعمك ، وخلق لك الماء
فسقاك ، وهو الذي يشفيك إذا مرضت ، ويجعل
لك أبناء إذا شاء ، أو يجعلك لا تنجب . . وهو
يحفظك بالليل وأنت نائم . . ويكلأك ويرزقك
بالنهار . . .

محفوظ : هذا الذي يفعل لي كل هذا ، هو مالكي .. وسيدي ..

صالح : إذن ، فأنت عبده .. أنت عبد الله ، وأنا عبده وكل
خلوق هو عبد الله . . .

محفوظ : إن ما سمعته منك اليوم لم أسمعك منك من قبل ،
فقد كنا نتحدث عن الأكل والشجر والغزلان وغيرها
وكنت أخفي عنك خوفي من الشمس ، وكنت أخشى
منها أن تسقط في أي يوم فتحرق النبات ، كما كنت
أعتقد ، وتقتلنا ، ولكني الآن ، وبعد أن عرفت
حقيقة الشمس ، والرعد ، والصواعق ، فقد اطمأن
قلبي ، وإن أخش شيئاً منها ، ما دام هناك إله اسمه
الله ، قوي رحيم مدبر يقبض عليها جميعاً ، ويحركها
كيف يشاء .

صالح : تلك من فوائد الإيمان بالله ، ألا تخشى غيره . .
ولا تخاف من مخلوق ، أو تحذر سوى الله .

محفوظ : ولكن من علمك هذا . . . ؟ ومن ذلك على الله ؟
يا أخي ؟

صالح : لقد أرسل الله رسولا للناس جميعاً ، يدعوهم
ويعرفهم بالله ، ويطلب منهم الإيمان به . . .

محفوظ : الله أرسل رسولا ! من السماء . . ؟ أم من باطن
الأرض . . . ؟

صالح : لا . . بل هو إنسان . . ؛ رجل من الرجال ،
ولكنه أفضل الرجال ، كان معروفاً بين الناس منذ
طفولته بالأخلاق الطيبة ؛ بالصدق ، والأمانة حتى
أنهم كانوا يسمونه الصادق الأمين ، وعندما بلغ
عمره أربعين عاماً ، كلفه الله بتبليغ الناس بأمر
الله . .

محفوظ : وما هو أمرُ الله . . ؟

صالح : أن يعبدوا الله وحده ، ويؤمنوا به ، وهو كفيْلٌ
— بعد ذلك — بأن يهديهم لكل أمرٍ يُصلح حياتهم ..

محفوظ : كيف يهديهم ؟

صالح : ينزِّل على هذا الرسول قرآنًا . . .

وقاطعه (محفوظ) قائلاً :

— قرآنًا . . ؟ ما معنى هذه الكلمة . . ؟

صالح : القرآنُ هو كلامُ الله ، أنزله على هذا الرسول الكريم ..
الصَّادِقُ الأَمِينُ ، لِيُبَلِّغَهُ للنَّاسِ ، وَلِيُشْرَحَ لَهُمْ ،
وَيُبَيِّنَ لَهُمْ معاني هذا القرآن . . .

محفوظ : وهل تعرف شيئاً من هذا القرآن . . ؟

صالح : أحفظُ كلَّ القرآن — بفضل الله — وأحفظ كثيراً من
كلام الرِّسُولِ ، وما تحدَّثَ به من حديث .

عند ذلك ازداد (محفوظ) قُرْباً من صالح ، وقال
له :

— هل يمكن أن تذكر لي شيئاً من هذا القرآن ، كلام
الله — يا سيدي . ؟

صالح : سأتلو عليك شيئاً من القرآن ، فحاول أن تفهم معانيه ..
إِسمِع — يا عبد الله — يقولُ الله تعالى للناس :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي

الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

ويقول أيضاً :

« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ
سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا
بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ،
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .

محفوظ : هذا الكلام يختلف عن كلامك الذي تتكلم به
معي منذ أن التقينا .

صالح : لأنه كلام الله كما أفهمتك . .

محفوظ : ولكن كيف فهم الناس أن الله خالق كل هذه
الأشياء . . ؟

صالح : بعض الناس كانوا - مثلك - يرون كل الأشياء
من حولهم ، الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والشجر
وكيف تسير الأمور في الحياة ، من موت وحياة . .
كيف يُولدون ، وكيف يموتون ، وغير ذلك ،
ولكنهم كانوا في حاجة إلى من يُنبئهم عقولهم ،
ويجابههم يفكرون في من خالق كل هذا ، ومن
يتحكم فيهم ، وفي شئونهم .

محفوظ : تماماً ، كما نبهتني أنت ، وعلمتني اليوم .

صالح : تماماً ، أنا أنقل لك هذا العلم ، كما علم رسول الله الرجال الذين كانوا معه ، وهم علموه لمن جاء بعدهم ، إلى أن وصل إلى هذا العلم ، وأنا أعلمك لياها اليوم .

أما الرسول فقد تلقاه من الله ، فالله بين للناس كيف خاق الكون ، وكيف يسيره .

محفوظ : بين هذا بكلام منه ؟

صالح : نعم ، الله أنزل القرآن ، وبين فيه كل شيء .

محفوظ : ماذا قال الله عن الكون والخلق ، والشمس والقمر ؟

صالح : قال الله عنها كل شيء ، وسأذكر لك منه القليل . .
وستتعلم في المستقبل — إن شاء الله — الكثير .

محفوظ : هيا قل لي . .

صالح : يقول الله تعالى :

« وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ،

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ » .

ويقول :

« اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

وَكَيلٌ » .

ويقول :

« وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ ، فَتُبْثِرُ سَحَابًا

فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا .

ويقول :

« يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ،
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

ويقول تعالى :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا
أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي
أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ .

محفوظ : ومن كانوا يدعون من دونه . . ؟ هل كانوا يدعون
الله آخر . . ؟

صالح : ليس في الكون غير الله ، إله واحد ، هو الأحد
الصمد الذي لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن
له كفواً أحد ، ولا مثل ولا شبه .

محفوظ : إذن من هذا الآخر الذي كانوا يعبدونه ؟

صالح : إنهم حينما كانوا يعبدون غير الله ، كانوا يعبدون
أشياء دون الله الواحد ، ويخافون منها .

ضحك (محفوظ) ، وهو يقول :

— هل كانوا يخافون الشمس والرعد مثلي ؟

صالح : بل كانوا يعبدون أشياء أخرى ، ويخافونها .

محفوظ : هل كانت تخلق الأشياء مثل الله ؟ وتُنزِّل المطر ؟
وتُنبت النبات ؟

صالح : لم تكن تفعل شيئاً من هذا ، ولا ذاك ؛ لأنها كانت
تمائيل ، يصنعونها بأيديهم ، من الخشب والطين
وغيرها . . .

محفوظ : إذن فقد كانوا مثل ما كنت أنا ، لا يعلمون شيئاً ،
ولكن لا بد أنهم تركوا كل هذا ، وعرفوا حقيقة
الله الخالق حينما بين لهم الرسول الحقيقة .

صالح : لا — يا أخي — بل كذبوه . . .

وبدا العجب على وجه (محفوظ) ، وهو يقول :

— كيف يكذبونه ، وهو لم يكذب عليهم قبل
ذلك . . ؟ ألم تقل إنهم كانوا يسمونه الصادق
الأمين ؟ وإنه عاش بينهم حتى بلغ أربعين سنة ،
لم يعرفوا عنه سوى الصدق وحسن الخلق
والأمانة . . ؟

صالح : نعم ، ولكنه حينما دعاهم لعبادة الله كذبوه
في أول الأمر ، وصدقه عدد قليل منهم . . فصر
الرسول الكريم عليهم ، وأخذ يعظهم ويجاهد لهم ،

ويتلو عليهم القرآن ، ويجعلهم يتفكرون في ما خلق الله من حولهم من مخلوقات فكانت تؤمن كل يوم مجموعة منهم .

قال (محفوظ) :

حدثني عن هذا الرسول ، ومن كان معه من الناس ، ومن صدقه ، ومن كذبه ، حدثني عن القرآن .

كان هذا الطلب من (محفوظ) ، هو المنطلق الرَّحْبُ للشيخ صالح ، ليوضح له حقيقة دين الله .

وكان صالح رجلاً عالماً بأمر دينه ، يحفظ القرآن ، دارساً للفقهاء ، حافظاً للحديث ، وكان يعلم من أمر الصحابة والتابعين ، وسيرة الصالحين الشيء الكثير ، ففضى أياماً بل أسابيع عديدة يحكي لمحمود ، ويتلو عليه القرآن ، حتى استيقنت نفس (محفوظ) دين الله ، الإسلام ، وعلمت بأمر الأجر ، والثواب والعقاب ، وحفظ شيئاً من القرآن ، وفهم بعض الحديث .

عند ذلك ، قام صالح بتعليمه العبادات ، بعد أن شرح له أركان الإسلام الخمسة .

ولقد كان أسعد يوم في حياة الشيخ صالح على الإطلاق ، يوم أن نطق (محفوظ) بلسانه ومن قلب مؤمن - بالشهادة ، وبعد أن بين له صالح كيف يغتسل ويتوضأ .

وما إن نطق (محفوظ) بـ (أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد

أن محمداً رسول الله) ، حتى أخذ صالح في تعليمه الصلاة ، وكيف تؤدي ، والفرص منها ، والنافلة .

ووجد الإسلام ؛ دين الفطرة والخير من نفس (محفوظ) الصافية ، الطاهرة ، خير مكان .

ومضى الزمن — بعد ذلك — فكان (محفوظ) يزداد في كل يوم معرفة بالله ، وقرباً منه ، حتى انقطع — تقريباً — للعبادة ، ووهبها كل وقته ، إلا ساعات قليلة ، كان يقضيها بقرب صالح ، يستفتيه ، ويسأله عن بعض الأمور التي لا يعرفها ، ويعتذر لصالح في بعض الأحيان ، إذا ما طالت غيبته عنه ، بقوله : — إنني أحاول — يا سيدي — أن أعوِّض ما فاتني من سنين قضيتها وأنا في جهل تام بخالقي ورازقي .

الإمتحان

في ذات يوم ، كان الشيخ صالح يجلس عند ظل شجرة كبيرة ، وكان يراقب محفوظاً وهو يقوم بمداواة غزالة من القطيع ، يضمده جرحاً بساقها ، وهو يربت — بين الحين والحين — على ظهرها ، وقد بدا على وجهه الاطمئنان والرضا . قال صالح في نفسه :

ما أسعد هذا الشاب : ما أسعده بحياته هذي الحالية من كل خطيئة ، أو سيئة ، ما أسعده إذ لم ينشأ بين البشر من بني آدم ، فيتعلم خصالهم ومعظمها ذميم ، إنه — إلى اليوم — لم يكذب ، أو يخدع ، أو يغش لم يظلم فتظلم نفسه ، ولم يظلم فيحقد ؛ ما أسعده ، وما أهناه بالإيمان .

أخذ صالح يفكر في هذا ، ويفكر في أن (محفوظاً) قبل

إيمانه بالله ، كان يبحث عن ربه ، فوجد آياته وآثاره في مخلوقاته ، فخشى تلك القوة التي تبدت له في الشمس ، والرعد ، والصواعق ، فلما عَلِمَ بِخَالِقِ تلك القوة ، ومُسَخَّرِهَا ، كان من السهل عليه أن تتقبل فطرته السليمة ، وعقله النقي ، وقلبه الصافي حقيقة الله خالق الكون الواحد الأحد ، وأن يقبل فكره — بعد أن ربط بين ما رأى وشهده من مظاهر الكون ، وما سَمِعَ من (صالح) المسلم — منطق الحق الواضح ، خلق وخالق ، وجود وموجد ، حركة ومحرك ، موت وحياة ، نشأة وعدم ، وعدم ونشأة ، ف (محفوظ) قد صُقلت فطرته ، وعُبِّئت ، حتى إذا ما عَلِمَ بِحَقِيقَةِ الله ، والإيمان ، وافق ذلك تلك الفطرة السليمة ، وأشعل فيها جذوة الإيمان ، وعزا الكون كله إلى إله واحد أحد ، قابض على كل الكون ، قوي ، بيده مقاليد كل شيء .

إنه — بهذا — خير من مشركي قريش ، إذ لم تلوث نفسه ، بما تلوث به نفوسهم ، من مجانبة لمنطق العقل ، فهو لم يعبد صنماً ، ولا أقام وثناً ، ولا أنكر دعوة الإيمان ، حينما عرضتها عليه ، بل تقبلها عقله السليم ، على الفور ، واستيقنتها نفسه الطاهرة النقية .

ولكن هل يكفيه إيماناً أن يعرف بوجود الله فحسب .

وتذكر صالح قول الله تبارك وتعالى : « أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » عندها أخذت صالح يفكر ، ويردد في نفسه :

— إن هذا الشاب الصالح ، وقد مضى عليه عامان — تقريباً —

منذ أن عرف حقيقة الإسلام ، والإيمان لا يغفل لحظة
عن مراقبة الله ، ولا يكلّ لسانه عن ذكر ربه ،
والتسبيح له .

ولكنه ، وهو في هذا الوادي ، قد أمِنَ من شرور الدنيا ،
وغوائل الأيام ، وبعُدَ عن التعرض لما يُبتلى به المؤمنون ،
طالماً أنه بعيدٌ عن معركة الحياة ، لم يُجرب صروفها ، فمن
فقد عزيز ، ولا إخاله عرف الجوع يوماً ، أو جرب الفقر
والحرمان ، أو الإغراء ، لم يُبتلْ بالناس ، بأشرارهم ، من
كذابين ، ومنافقين وغشاشين ، وجاحدين ، وخداعين ،
ولصوص وغيرهم من مرضى النفوس .

لا بد له من الاختلاط بالبشر ، والعيش معهم ففي معركة
طلب الرزق بينهم يتعرض للظلم ، والإغراء ، والجوع ،
ونقص الأموال ، وفي حرصه على بقائه ، وبقاء أبنائه ، ومن
يقوم بإعالتهم ، يصيبه الخوف من أن يُظلم ، أو يُجحف ،
أو يؤذى ، أو يعذب أو يُحرم .

وهنا اختبار لحُلُقهِ ، وقوة إيمانه . .

لا بد أن توضع الدنيا أمامه ، بنعيمها ، وزخرفها ، وإغرائها ،
ولا بد أن يكون له فيها ما يحرص عليه ، ويخشى فقدّه ، هناك
يختار بين الطريقين ، أيهما يسلك ، هل يتبع زينتها من مال
وبنين ، ويتبع شهوات نفسه ، أم يظل يخاف مقام ربه ، وينهى
نفسه عن هواها .

إذن . . لا بد أن يعيش بين الناس ، يعمل ، وينافس ،
ينشئ أسرةً ، وينجب الأبناء والبنات ، وهنا امتحان واختبار . .

هل يلهيهِ هذا عن مراقبة الله وذكره ، وهو في سبيل البحث عن
الرزق لهم ، وإعالتهم ، وتنشئتهم وينسى تحذير رب العباد
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ
عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ » .

وإذا مات الولد ، هل يُسَلِّم الأمر لله . . فهو الذي أعطى ،
وهو الذي أخذ ، ويقول حينئذ « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » .
بل يقولها كلما أصابته مصيبة ، أو آلت به كارثة ، فيلتجئ
بهذا لله وحده .

هذا ما يجب أن يكون عليه المؤمن الحق ، لا يعتمد إلا على
الله حينما تهتز حياته ، ولا يلجأ إلا إلى الله عندما تضيق به الدنيا ،
يُسَلِّم الأمر كله لله ، فالله هو المبدأ ، وهو المستهى ، هو الأول
والآخر ، والظاهر والباطن ، لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ،
ولا مشيئة إلا مشيئته « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » .

لا بد لهذا الشاب أن يترك عزلته في هذا الوادي ، إذ بهذا
فقط تُختبر قوة إيمانه بالله ، بعد أن عرفه .

وباختلاطه بالناس ، تتكشف له مقدراته وحقيقة شخصيته ،
فهو إنسان كرمه الله بالعقل ، وسخر له كل ما في الكون جميعاً
منه ، فلعله في حياته بين البشر ، تبين له صلابته ، وقدرته
على الخير ، والعطاء ، على الرغم من كل ما يُحيط به من إغراء يدفعه
إلى الشُّح ، وسلوك سبيل الشيطان .

بعد أن فرغ (محفوظ) من مداواة الغزاة ومعالجة جُرحها ،
جاء إلى جوار الشيخ صائح ، وجلس بالقرب منه ، وقال له :
— الحمد لله فإن جُرح الغزاة لم يكن كبيراً . .

وصمت (محفوظ) ، ومضت لحظات ، كان يتوقع أن يقول صالح فيها شيئاً ، أو يُعلق على حديثه ، فلما لم يحدث هذا ، نظر إليه (محفوظ) ، فوجده ساهماً يفكر ، فقال له :

— فيم تفكر يا صالح . . ؟

وتنبه صالح على سؤال (محفوظ) ، فتبسم ، ووضع يده على كتف (محفوظ) ، وقال له :

— هناك أمر أود التحدث إليك فيه .

محفوظ : قل يا أخي . . فأنا مُصغٍ إليك . .

صالح : لقد أنعم الله عليك يا عبد الله بمعرفته ، وبالإيمان به ، فأنت تعبده ، وتتقرب إليه ليل نهار ، فعسى أن يقبل منك ، ويرحمنا ، ويرحمك .

قال محفوظ : آمين . .

ومضت فترة صمت أخرى ، ولكن (محفوظاً) قطعها بقوله :

محفوظ : ما الذي تود قوله لي — يا سيدي — ؟ وفيم كنت تفكر . . ؟

صالح : كنت أفكر في عودتي ، وعودتك إلى حيث نجتمع بالناس من بني البشر ، فقد طال الغياب . .

محفوظ : لعلك سئمت البقاء هنا في هذا الوادي ، فلك أن أن تعود متى ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، وقد أستطيع أن أعينك ، وأساعدك في صنع الشيء الذي اسمه

المركب ، إذا علمتني كيف يُصنع .

صالح : إنني لم أسألم البقاء معك يا أخي ، فأنت نعم الشاب الطيب الصالح ، النقي ، فأنا لن أفارقك بإذن الله ، إذ أنني أرغب في عودتك أنت - أيضاً - إلى أهلك أهلك من بني الإنسان ، وترك هذا المكان ، بل يجب يا أخي أن تعيش بينهم .

محفوظ : أتعني أنني يجب أن أذهب إلى هناك ، إلى ما وراء البحر والجبال ، إلى مجتمع الناس ؟!!!!

صالح : نعم ، بإذن الله .

محفوظ : أأرحل إلى أرض الناس من بني البشر ؟

صالح : نعم ، على الرغم من أنني أعلم أنك تفضل البقاء هنا في هذا الوادي الأخضر ، تتفرغ للعبادة ، وتعيش بين غزلانك التي تحبها وتحبك .

وسرح (محفوظ) بفكره وقتاً طويلاً ، ثم قال :

محفوظ : إنك لا تدري - يا سيدي - بمقدار تشوقي لرؤية الناس ، ورغبتني في معرفتهم ، والاختلاط بهم ، بعد أن تكشفت لي حقيقتي ، وبعد أن علمت منك أن هناك الألوف الألوف ممن هم في مثل شكلي ، وكم أتمنى أن أراهم جميعاً ، بمختلف أشكالهم ، وأحجامهم ، وباختلاف ألوانهم ، وأجناسهم ؛ أرى طفل الإنسان ، وأنثى الإنسان ، ومولود الإنسان ، بعد أن قضيت كل حياتي هنا ، بين

الغزلان ولا علم لي بوجود مخلوق يشبهني وبمائلني ،
 إنك بعد أن قصصت على القصص الكثيرة عنهم ،
 أثار كل هذا الرغبة في نفسي لرؤيتهم ، وثقت
 للعيش بينهم ، وقد شجعني في بادئ الأمر تعرفي
 عليك ، وما لمستك فيك من عطف ، وود صادق ،
 وما تعلمته منك من كلمات ، حتى أصبحت أتكلم
 لغة ، وأنطق بألفاظ بعد أن كنت أهمهم كالحَيوان
 الأعجم .

لقد صبرت على تعليمي حتى أصبحت أتحدث بهذه
 الطلاقة ، وقد منَّ الله عليَّ بنعمة الإيمان به ،
 والإسلام له ، على يدك ، فعرفتني بحقيقة الخالق ،
 الأحد ، الصمد ، وعلمتني من القرآن آيات ،
 حتى حفظتها ، وما كان ينبغي لي ذلك ، لولا أن
 هبَّ لي الله تعالى حضورك إلى هذا المكان ، علمني
 الله الصلاة على يدك ، وبعض ما فرضه الله علينا
 من فروض واجبة الأداء .

ولقد ابتعدت عن القطيع ، عن الغزلان ، بعد أن
 كنت أعيش بينها ، وأنا أعتقد أنني واحدٌ منها ،
 ابتعدت عن القطيع ، بعد أن عرفت حقيقة إنسانيتي
 وحقيقة ذات الله الموجد ، خالق الكون ، الحي
 القيوم .

لقد حبَّبت البشر إليَّ يا أخي صالح ، وجعات
 نفسي تشنق وتثوق للاختلاط بهم ، غير أنني
 - يا أخي - أخشى هذا . .

صالح : ماذا تخشى يا عبد الله . . ؟

محفوظ : أخشى البشر ، أخشى مخلوقات تبحد الله الخالق ،
الله الذي أحسن كل شيء خلقه ، ثم خصهم بأحسن
خلق من التركيب الجسماني ، وأحسن التقويم الفطري ،
كرم الإنسان على سائر المخلوقات بالعقل ، وبهاتين
اليدين ، وهذا اللسان ، هذا العقل الذي يهتدي به
الإنسان لخالقه ورازقه ، المنعم عليه في كل لحظة ،
وهاتين اليدين اللتين يفعل الإنسان بهما المعجزات
من الأعمال مما لا تستطيعه الغزلان والطيور وغيرها
من الحيوان ، وهذا اللسان الذي أنطق به الآن وأعبر
به عن ذاتي ، وعن رغباتي ، وأُسبِح به ربي ،
وأحمده .

يكفيني من ربي فضلا أن أرسلك لتعلمني كيف
أنطق وكيف أفهم مدلولات ما أسمع منك ، والفضل
كاه لله الذي أبدع في هذا العقل المدهش الذي خص
به الإنسان ، فهلا أشكره بعد ذلك ؟ هلا أطلقت هذا
العقل في التفكير فيه - سبحانه - وفي مخلوقاته ،
ولساني هذا الذي كان معطلا فنطق بفضل الله ،
هلا أطلقه بالتسبيح لخالقه ، بحمده ، وشكره ،
بل كل هذا الجسد البديع التركيب ، هلا سخرته
للصلاة وعبادة خالقه ، ومبدعه ؟

ألا يكفي الإنسان ، كل هذا لكي يذلَّ لله ويعبده
ويُخاص له ؟

ولكنني أرى من الناس غير ذلك ، وقد قصصت أنت علىَّ عنهم القصص ، وصورت لي فعالهم ، من أنهم يعصون الله ربهم ، فكيف تُرى يعاملون بعضهم بعضاً . . ؟ وكيف يعاملونني أنا إذا اختلطت بهم ، وعشت بينهم . . ؟ إنهم يظلمون أنفسهم بمحدهم فضل ربهم وبعضيائهم له ؛ فحقيق بهم أن يظلموا بعضهم بعضاً .

قال صالح :

— إن من البشر من هو صالحٌ تقيٌّ خَيْرٌ ، منهم من هو أرفع درجة من الملائكة عند الله ، ومنهم من يغطهم الأنبياء والمرسلون ، كما حدّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
كما أن منهم الكافر ، والظالم ، والشرير ، ولكن لا بد لك أن تختلط بهم جميعاً . . نعم ، لا بد أن تختلط بالبشر ، وتحتك بالصالح والطالح من الناس ، وتحيا حياتهم ، حتى تختبر قوة إيمانك ، ورسوخ عقيدتك ، لا بد من الامتحان ، والبلاء ، فالإسلام ليس كباقي الأديان ، يختص فيه الفرد بنفسه فحسب ، الإسلام ليس فيه صومعة يبنها المسلم على رأس جبل ، أو في وادٍ سحيق ، أو عند سفوح التلال فيعيش فيها ، ويقضي بها عمره يتعبد ، ولكن الإسلام دين الجماعة ، ودين الدعوة ، ودين الأمر بين الناس بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، بكل الوسائل . . الإسلام دين مجتمع ، وجماعة ، يلزم فيه الفرد بالجماعة ، ويُجزى بقدر ما يقدم للمجموعة ، بدءاً من إماطة الأذى عن الطريق ، إلى شهادة ألا إله إلا الله ، ثم حمل السلاح والجهاد في سبيلها .

الفرد المسلم مسئول أمام الله عن الجار ، وعن الإبن ، وعن الوالدين ، وعن أصدقاء الوالدين ، وعن من يشتري منهم ، ومن يبيع لهم ، ومن يتعامل معهم ، عن الشيوخ ، والأطفال ، والنساء ، عن البر بالزوجة ، وبأهل الزوجة ، وبالبشر جميعهم من حوله .

المسلم مطالب بأن يحب للآخرين ما يحب لنفسه ، فإذا وصل إلى هذه المرتبة فلن يضرَّ أحداً أو يؤذيه لأنه لا يحب الضرر والأذى لنفسه .

يا أخي عبد الله ، لا بد لك أن تلتحم بالناس ، وتعيش الحياة سويةً معهم ، تؤدي تكاليف العقيدة ، وتربي نفسك بالبلاء ، ويمتحن الله بذلك عزيمتها ، وتصميمها على الثبات ، على الإيمان ، والحق . . مهما كانت الشدائد والمخاوف ، وعلى الرغم من ما يعترضك من مصائب الدنيا .
فالله سبحانه وتعالى يقول :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » .

مضت الأيام ، وصالح لا يزل يُحدث محفوظاً عن ضرورة تركه الوادي ، ووجوب رحيله إلى حيث يعيش بين البشر من بني جنسه .

وكان (محفوظ) ، يقلُّبُ الأمر في ذهنه ، ويكاد يوافق في بعض الأحيان ، ولكن الخوف من المجهول ، وما كان

يكشف المسألة من غموض ، كانا يحجيان الحقيقة عن عقله ،
ويشلان فكره عن الوصول للصواب ، والاختيار بين الأمرين ؛
أمر بقاءه في الوادي الأخضر ، حيث نشأ بين غزلانه ، وترعرع
بين مَروجه ووهاده ، لم يَمَلْهُ يوماً ، أو يزهد في العيش فيه ،
بل ما زال إلى ساعته الراهنة مقتنعاً بحياته تلك بين جنباته ،
وبيقائه فيه .

وبين الأمر الآخر ، وهو اقتحام عالم مجهول ، هو أولاً
وأخيراً لا يشاق إليه لأنه لم يكن قد عاش فيه قبل ذلك ، ثم
إنه لا يشده إليه حين ، ولا تربطه به رابطة ، ولا بينها آصرة
قربى ، ولا وشيجة صداقة ، ولا حتى مجرد معرفة بهم .

أجل ، قد حدثه الشيخ صالح عن حياة البشر وأخلاقهم ،
وعاداتهم ، وصور له كل شيء فيهم ، وقص عليه الكثير
من القصص عنهم ، حتى كاد يحس أنه يعيش بينهم ، ولكن
كان يصحب إحساسه هذا - دائماً - إحساس "خفي بالخوف
منهم ، من طباعهم ، وما يمتزج بحياتهم ، من خير يتمثل في
صلاح الصالحين منهم ، وشر يتبدى عند بعضهم في الكفر ،
والجحود ، والظلم ، والعدوان ، والقتل بغير الحق ، والأذى .

كان (محفوظ) يجلس الساعات الطوال ، يفكر في كل
هذا ، فيحار ، أترك هذه الحياة الوادعة الآمنة ليلقي بنفسه
في أتون مجتمع البشر ، أم يمضي في ما اعتاد من حياة ؟

وتمر بذهنه صورة الشيخ صالح ، فتحدثه نفسه ، لتقول له :

- هو ذا أحدُ بني الإنسان ، كان له - بعد الله - الفضل
في إرشادي إلى طريق الإيمان ، ومعرفة الحق جلّ جلاله ،

وفضل تعريفي بحقيقي الإنسانية ، علمني هذا الكلام والنطق ،
الذي أعبرُ به عن ذاتي ، والألفاظ التي أفهم بها كلام الله ،
وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، أفلا يجعلني كل هذا
الفضل من هذا الرجل أن أحب الناس في شخصه . . ولكنه
يرجع فيقول :

— يكفيني من الناس صالح ، ومعرفتي به ، فلا أجازف
بالاختلاط بغيره من الناس ، ممن حدثني هو عنهم ، وعن
خلُقهم السيء ، وعاداتهم القبيحة .

ثم تعود نفس (محفوظ) الحيرةُ توحى إليه قائلة : ولكن
إذا كان في ذهابي إلى مجتمع الناس لإرضاء لخاطر معلمي صالح ،
فلا أقل من أن أقدم على ذلك رداً لفضله علىَّ وتقديرأ لإحسانه ،
وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

كانت لحظة من أسعد اللحظات في حياة الشيخ صالح ،
تلك اللحظة التي جاء فيها (محفوظ) ، وجلس إلى جواره ،
وقال له :

— لقد شاورت عقلي ، ثم استخرت الله ، فوجدت أن
الرحيل معك — أيها الرجل الصالح الطيب — أفضل لي .

ولم يكن (محفوظ) إلى تلك اللحظة ، قد سأل الشيخ صالح
عن الوسيلة التي سينقلون بها ويسافرون بها إلى حيث يعيش
بقية الناس .

ولكن قبل أن يتوجه (محفوظ) بالسؤال لصالح ، قال
له صالح :

— شكراً لك يا عبد الله على قبولك بأمر الرحيل ، فأنت
فتي طيب الخُلُق ، راجح العقل ، وإني لأعلم بما تعاني من
مجرد أن يخطر بذهنك أمر ترك هذا الوادي ، الذي نشأت فيه ، ومفارقة
تلك الغزلان التي عشت بينها ، وأعلم — أيضاً — مدى خشيتك
من مخالطة البشر ، ومن العيش في مجتمعاتهم ، ولكن اعلم أن
هذا أمرٌ لا بد منه كما بينت لك قبل ذلك ، وما علينا الآن إلا
أن نفكر في الوسيلة التي نخرج بها من هذه العزلة ، ونصل بها
إلى أرض البشر بإذن الله سالمين .

وصمت صالح قليلاً ، ثم قال :

— ليس هناك من طريق للخروج ، غير الذي جئت أنا
منه . . البحر . . نعم . . ليس من سبيل إلى خروجنا من هذا
المكان إلا البحر . .

محفوظ : البحر . .؟! ولكن كيف يتم لنا هذا . . ؟

صالح : ليس هناك غير أن نقوم ببناء سفينة من الخشب ،
نركب عليها ، وندعو الله أن يحفظنا من العواصف
وويلات البحر ، وأخطاره .

محفوظ : ولكن . . إلى أين نتجه ؟

صالح : لست أدري ، فالهدف هو بلدي حيث أهلي وولدي ،
ولكن في أي اتجاه هي من هذا البحر المحيط ؟
هذا ما لا أعلم لي به ، فعلينا أن نستخير الله ، ثم
نمضي في سفرنا ، فإما بلغناها بإذن الله أو بلغنا
بلداً آخر من بلاد الله المنتشرة في الأرض .

قال (محفوظ) ، وهو ينهض :

— كل أمر مقدر يا أخي « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا » .

* * *

عند العصر جلس صالح و (محفوظ) على الأرض ، وكان صالح يحمل بين أصابعه عوداً صغيراً ، يخطط به على الأرض شكلاً للمركب ، وكان من أصعب الأمور عليه أن يوضح لمحفوظ هيئة المركب ويبين له تفاصيل أجزائه ، فمحفوظ لم يشاهد في حياته مركباً ، كما أن خياله لم يعنه على تصور شكل المركب ، غير أن الشيخ بذلك الرسم الذي خطه على الأرض ، مع الشرح لمحفوظ وتوضيح حجم كل جزء من المركب ووظيفته ، استطاع أن يقرب المسألة كثيراً من ذهن (محفوظ) .

العمل في صنع المركب

عند فجر اليوم التالي ، كان صالح و (محفوز) في طريقهما إلى ساحل البحر ؛ سارا حتى بلغا منطقة الصخور ، فصعداها ، واجتازا الكهف إلى الساحل ، .

وفي الطريق ، حكى صالح لـ (محفوز) - لأول مرة - حكاية سفره ورحلته التي انتهت به إلى هذا المكان ، فقال إنه كان في رحلة مع بعض رفاقه من التجار على ظهر مركب ، فهبت عاصفة قوية عاتية ، وهاج البحر ، وعلت أمواجه ، وأخذت تعبث بالمركب ، وتتقاذفه ، وتحمله من مكان إلى مكان ، تعلو به تارة ، وتهبط أخرى .

وأخذ رفاقه يتساقطون ، الواحد بعد الآخر ، حتى لم يبق إلا هو ، فألهمه الله أن يتشبث بسارية المركب ففعل .

ومضى بعد ذلك وقت طويل ، والبحر في هياجه والرياح تعصف بالمركب ، و (صالح) على تلك الحال ، يتشبث بالسارية ، بكل ما آتاه الله من قوة ، ويدعو الله أن ينجيه .

وأخيراً ارتطم المركب بالساحل ، ارتطاماً هشمه تهشماً ، أما صالح ، فلم يتنبه إلا على سقوطه على رمال الساحل ، بعد أن قذفت به قوة الارتطام بعيداً ، وراح في إغماءة طويلة ، لم يفق منها إلا على وجود (محفوز) بجواره .

قال له (محفوظ) :

— لعل كل ما حدث لك — يا أخي — كان لحكمة ؛
فقد أراد لي الله سبحانه وتعالى ، أن ألتقي بك ، لأهتدي
إلى طريق الإيمان ، فهياً لك سبيل النجاة من الموت في البحر ،
وهو على كل شيء قدير .

ومع الشعاعات الأولى من شمس الصباح كان صالح ،
و (محفوظ) قد وصلا إلى الساحل ، وهما يحملان بعض كتل
الخشب ، وفروع الأشجار ، التي تصلح جميعها لعمل المركب .

وبعد أن وضعها على أرض الساحل ، عادا إلى الوادي
مرة أخرى ، فجلبا غيرها وغيرها ، حتى تجتمع لديهما من
الخشب ما يكفي لصنع مركب كبير . ثم عادا في النهاية ، وكان
الوقت قد قارب المساء ، فباتا في الوادي .

وبعد أن صليا الفجر معاً — في اليوم التالي — ، حملا بعض
الفاكهة ، وأخذا معهما بعض الماء من النهر — في جرة كبيرة
كان صالح قد صنعها من الطين — واتجها إلى ساحل البحر .

وبدأ العمل في المركب ، وكان الرجلان الصالحان يعملان
في المركب ، وهما يدعوان الله أن يهيء لهما به النجاة ، وأن
ينخرجا به من ذلك المكان الذي ليس فيه من بني الإنسان سواهما ،
إلى دنيا البشر ، ذلك المكان الذي قضى فيه (صالح) ثلاث
سنوات ، ما كان يطيق بقاءها لولا أن إيماناً قوياً ، ونفساً صافيةً ،
وحباً في دين الله ، ورغبة قوية في إرضائه ومثوبته كانت تدفعه
ليُعلم (محفوظاً) أمور الدين ، وحقيقة الله الواحد الخالق
الأحد الصمد .

أما (محفوظ) فقد مضت عليه من حيث لا يدري سبعة عشر عاماً ، وهو بين تلك الحيوانات الأعاجم ، لا يعرف غيرها عشيرة ، ولا أهلاً ، ولا يعرف غير الوادي الأخضر دنيا ، ولا وطناً .

مضت الأيام والشهور ، وصالح و (محفوظ) ، يعملان في بناء المركب ، بكل همة ونشاط ، مستعينان بالله في كل خطوة ، ويدكرانه ، ريسبحان بحمده في كل لحظة وفي كل حين .

أما عملهما فقد كان شاقاً ، صعباً ، فالمركب يجب أن يكون كبيراً قوياً ليتحمل قوة اندفاع أمواج البحر ، وأعاصيره ، ورياحه وما يفاجيء به من يركبه من المسافرين ، سيما وأن رحلتهم غير محددة الوجهة ولا الاتجاه ، إلى أين ؟ وكم تستغرق من الزمن ؟ الله وحده يعلم .

وفي ذات يوم ، وقد شارف العمل في المركب على نهايته ، وبينما صالح منهك في عمله ، إذ تنبّه على صوت محفوظ ، رهو يقول له مشيراً إلى جهة البحر :

— أنظر إلى هذا يا (صالح) . . .

ونظر صالح إلى حيث يشير (محفوظ) فإذا مركب كبير ضخّم ، يشق عباب البحر .

قال صالح ، وبإيمانٍ قويٍّ ، وهو سعيد سعادة لم يستطع أن يخفيها :

— لا بدّ أن الله قد أرسل هذا المركب ، وأهله لإنقاذنا .

وترك صالح و (محفوظ) العمل في المركب واقتربا من

الساحل ، وأخذوا يلوحان للمركب العابر ، وهما يصيحان بعض الصيحات العالية .

وفجأة ، لاح رجل في أعلى المركب ، وأخذ يلوّح لهما ، يرد على إشارتهما بعد أن شاهدهما على الساحل .

وخفف المركب من سرعته ودار حول محوره ، ثم اتجه نحو الساحل ، حيث يقف صالح و (محفوز) وهما يحمدان الله ويشكران فضاه .

وتوقف المركب على مسافة قصيرة من الساحل ، وألقى مراسيه ، ثم اصطف ركابه عند حافته .

كان ركاب المركب خمسة من الرجال ، وقفوا إلى جوار بعضهم البعض ، وأخذوا ينظرون إلى صالح و (محفوز) الواقفين على الساحل ، بتعجب زائد ، واندعاش .

أما صالح ، فقد كانت تتحرك شفتاه ، ويلهج لسانه بدون توقف ، بحمد الله على دنو ساعة النجاة ، وقرب موعد عودته بإذن الله إلى أهله ، وأبنائه ، وعشيرته .

وأما (محفوز) ، فقد جحظت عيناه ، وكادتا أن تخرجان من محجريهما ، وهو يشاهد خمسة من الناس دفعة واحدة ، وهو الذي لم يكن قد شاهد إنساناً طوال حياته ، إلاّ شخصاً واحداً ، رآه منذ عهد قريب ؛ . . هو صالح ، وكان يعتقد قبل رؤيته إتياء أن ليس هناك في الوجود من يماثله هيئة ، وشكلاً ، وتكويناً .

ومضى (محفوز) يطالع في وجوه الرجال الخمسة بحيرة

وتعجب واندهاش ، ويفضول من يرى الشيء لأول مرة ،
ينقل بصره من الواحد منهم إلى الآخر ، ويعن فيه النظر ،

أما الرجال الخمسة ، فقد تعجبوا لوجود هذين الآدميين
في ذلك المكان الموحش المنعزل عن العمران ، عند البحر في مكان
قصي من العالم ، بعيد موغل في البعد . وهالهم - كذلك -
منظرهما ، وما هما عليه من هيئة زرية ، فقد كان كل واحد
منهمما يرتدي أسمالاً بالية ، لا تكاد تستر إلا أجزاء يسيرة
من البدن ، وقد طال شعر رأسيهما ، ولحيتهما والشوارب ؛
حتى غطى الشعر كل الوجه تقريباً ، فأصبح لا تبدو منه إلا
العينان ، وأجزاء من الجدين يسيرة ، طالت منهما أطراف اليدين
والقدمين ؛ فأضفى كل ذلك على هيئتهما الكثير من التوحش .

مضى وقت طويل على هذا الحال ؛ الرجال الخمسة على
المركب ، لا يحرّكون ساكناً ، ولا يحولون أنظارهم عن صالح
ورفيقه ، وصالح ورفيقه كأنما هما تمثالان وقد شلت المفاجأة
أقدامهما ، فظلا واقفين يحدقان في أصحاب المركب .

وأخذ صالح المتزن العقل ، يفكر في تلك اللحظة ، فقال
في نفسه : لا بد أن هؤلاء الرجال قد أخذ منهم الفرع منا
مأخذاً . . . فحالا وهيتنا قد تلقى في روعهم أننا بدائيان
متوحشان ، قد تلحق بهم ضراً إذا هم تركوا المركب ، ونزلوا
إلينا على اليابسة ، وقد يدور بخلدنا أننا فردان من قبيلة متوحشة
تسكن هذه البقاع ، وقد نستعدي عليهم بقية أفراد القبيلة
- بظنهم - فيتكاثرون عليهم فيقتلونهم ، أو يأسرونهم .

وألم الله صالحاً ، الرجل المؤمن ، أمراً في تلك اللحظة ،
وهده إلهه ، ذلك أن الله يتولى الصالحين .

« وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً » .

فكان المخرج من ذلك الموقف الحرج ، أن تقدم صالح خطوات داخل الماء ، حتى أصبح أكثر قرباً من أصحاب المركب ، وعندئذ صاح بصوت قوي ، واضح النبرات :
- السلام عليكم - أيُّها الرِّجال - ورحمة الله وبركاته .

وفي اللحظات التالية ، كان الرجال الخمسة قد تركوا المركب وقفزوا إلى الماء ، ثم خاضوا البحر عند الساحل ، حتى وصلوا إلى حيث كان يقف صالح ومحفوظ ، التفوا حولهما ، وأخذوا يسألونهما أسئلة متلاحقة :

- ما الذي أتى بكما إلى هذا المكان . . ؟

- متى جئتما . . . ؟

- وكم من الزمن قضيتما في هذا المكان المنزل ؟

ونالت الأسئلة على (صالح) و (محفوظ) من الرجال الخمسة ، فكانا يجيبان عليها إجابات صريحة ، إلاّ أمراً واحداً ، كان الرجلان قد تعاهدا على عدم البوح به ، أو الخوض فيه ، هو عدم ذكر ما يشير إلى نشأة (محفوظ) الأولى في الوادي الأخضر ؛ فقد رأى صالح ، الرجل العاقل ، الحريص - بما له من تجربة مع الناس ، ودراية بخلقهم ، وما جبّل عليه بعضهم من رغبة مستعيرة ، مسترة في إلحاق الأذى والتجريح بالآخرين والانتفاص من أقدارهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وما وجدوا إليه مدخلا - رأى صالح إلاّ ضرورة تُوجب ذكر ذلك الأمر ، فاتفق مع (محفوظ) على هذا ، وقطعا على نفسيهما العهد عليه .

كان صالح يجيب على كل سؤال يسأله إيّاه أحد الرجال الخمسة ، مما يتعلق بقصة مجيئه إلى ذلك المكان ، فيحكى لهم ما وقع له من أمور ، وأهوال في البحر ، وكيف حطمت العاصفة - قبل عامين - مركبه ، وكيف قذف به البحر إلى الساحل ، يحكى كلّ هذا فلا يفهم منه أصحاب المركب الخمسة غير أن الأمر جميعه متعلق به هو ورفيقه (محفوظ) ، فلم يُضطرّ - لذلك - للكذب ، أو الغشّ ، ولم يضطرّ إلى ذكر شيء مما يتصل بحياة (محفوظ) السابقة .

وفي نهاية الأمر ، طلب صالح من أصحاب المركب أن ينقلوهما إلى بلده ، بعد أن ذكر لهم اسمها . .

وأبدى الرجال دهشتهم وتعجبهم حين سماعهم اسم بلدة صالح ، إذ أن موقعها كان بعيداً جداً ، من ذلك المكان ، يقتضي الوصول إليه السفر شهوراً طويلاً في البحر .

وبعد ساعات كان الجميع على ظهر المركب ؛ الرجال الخمسة وصالح ومحفوظ ، ورُفعت المراسي ، وتحركت السفينة بهم مبحرين ، بسم الله مجراها ومرساها .

مضت الأيام على ظهر المركب بمحفوظ وصالح ، رتبة ، طويلة .

وكانت أكثرَ طولاً ، وأشدّ رتابةً بالنسبة لصالح ، الذي كان يزداد كل يوم شوقاً لأهله ، كلما ازداد قرباً من بلده ، ولم يكن يُخفف من ذلك بالنسبة له إلاّ انقطاعه معظم الوقت للصلاة والعبادة ، واختلاؤه بالله تعالى بعيداً عن بقية الرجال .

وبعد أن انقضت عشرة أيام من السفر المتواصل رسا المركب على الساحل ، وكانت تلك أول مدينة يصل إليها المركب ، بعد أن أقلَّ الرجلين ، محفوظاً ورفيقه .

ووقف (محفوظ) عند حافة المركب ، ينظر إلى ذلك الحشد الكبير من بني البشر ، الذين لم ير مثله من قبل .

حشدٌ كبيرٌ من أهل تلك المدينة ، كانوا على الساحل في انتظار وصول المركب ، منهم الأطفال ، والنساء ، والشيوخ ، ذوو اللحى البيضاء ، كان فيهم الأبيض البشرة ، والأسود ، والأسمر . . . وحرار (محفوظ) ، وكاد عقله - في بادية الأمر - يَزِينُ .

وتكرر هذا الأمر في كل مدينة يرسو بها المركب ، حتى اعتاد (محفوظ) - آخر الأمر - على رؤية الناس ، فما عاد ذلك يثير في نفسه عجباً ولا اندهاشاً .

وفي ذات مرة أغراه الشيخ صالح - وكان يراقبه ، لا يغفل عنه ، يشرح له كلَّ ما يُشكِّل عليه من أمور كان معظمها جديداً بالنسبة له - أغراه والسفينة ترسو عند ميناء إحدى المدن ، بأن ينزل إلى الأرض فيتحدث إلى الناس ، ويخالطهم .

وتردد (محفوظ) بعض الشيء ، واعتذر عن ذلك ، ولكن صالحاً ألحَّ عليه ، مُعلِّلاً له ضرورة اختلاطه بالناس بأنها تُفيدُه متى ما بلغوا نهاية الرحلة ، وعاشوا هناك في مجتمع المدينة الكبير .

ومضى صالح يلحُّ على (محفوظ) ويغريه ، حتى وافق (محفوظ) - في آخر الأمر - وانصاعَ لرأي صالح ، فترل

إلى أرض الميناء ، واختلط بالناس ، وتحدث إليهم ، ثم عاد إلى المركب - بعد ذلك - وهو سعيدٌ مسرورٌ .

وسأله صالح عن تجربته تلك - وهي الأولى - مع الناس ، فأجاب (محفوظ) والإرتياح بادٍ على محبّاه :

- لقد سعدت بهم ، وأحسست وأنا بينهم بإنسانيّتي ، وكوفي من البشر ، وأن أكثر ما شاقني ، الحديث إلى الأطفال ، وسماع أصواتهم النديّة الناعمة ، ولو أني كنت مدفوعاً دائماً ، مسياً للتحدث إلى الشبان ممن هم في مثل سني .

وقطع حديث انصديقين صوت ربان المركب ، وهو يقول مخاطباً لهما :

- لقد بقي يومان فقط على الوصول إلى بلدكما - إن شاء الله . . سالمين . .

في المدينة

كان تقدير ربان المركب صحيحاً ، ومناسباً ، فما إنْ أشرقت شمسُ اليوم الثالث ، حتى بدت عند الساحل مدينةٌ ، خيِّلَ لمحفوظ أنها صغيرةٌ ، لا تختلف كثيراً عن المَدَنِ الصَّغيرة التي زاروها ، ورسا عندها المركب ، أثناء الرحلة .

ونذكر حديث صالح عن مدينته تلك ، وكان صالح كثيراً ما يتحدث عنها ، وكان يصفها دائماً بأنها مدينةٌ كبيرةٌ .

قال (محفوظ) في نفسه :

— إذن فهذه المدينة الصغيرة ، التي تبدو هناك على البعد ، ليست هي بمدينة صالح .

ولكن في تلك اللحظة ، رأى (محفوظ) صديقه (صالح) وهو مقبلٌ نحوه في سرعة وخفة ، لم يعهدهما فيه من قبل ، وحينما اقترب منه ، قال له ، وهو فرحٌ سعيدٌ :

— لقد وصلنا يا (عبد الله) .

وأشار بيده نحو المدينة التي كانت تبدو على البعد وهو يقول :

— تلك هي المدينة التي أعيش بها ، والتي وُلدتُ ، ونشأتُ فيها . أنظر يا عبد الله ، إنها هناك ، هناك على البعد ، إنها مدينتي فيها أبنائي وبناتي ، وأهلي ، وعشيرتي ، ولطالما اشتقت لها ، وإن شوقي ليزدادُ لها كلما اقتربتُ منها .

قال (محفوظ) :

— لكن ، كيف هذا . . . إنها مدينة صغيرة ، وقد ذكرت لي قبل ذلك أنها . . .

وقاطعه صالح قائلا :

— إنك تراها الآن من على البعد صغيرة ، ولكن ما تلبثُ
— حين تقترب منها بالمركب — أن يتضح لك مدى كبرها
واتساعها .

كان صالح في حالة عظيمة من النشوة والفرح والسرور ،
لا تفارق البسمة وجهه ، ولا يستقر له حال ، ولا يبقى في مكان
واحد ، فما إن أكمل عبارته تلك ، حتى هروا نحو أحد رجال
السفينة ، يسأله ، ويستفسر منه عن بعض الأمور .

ومضت ساعة — تقريباً — و (محفوظ) لا يبرح مكانه عند
حافة المركب ، ولا يتحول نظره عن المدينة التي كانت تبدو
لناظريه ضخامتها ، واتساعها كلما اقترب المركب منها ، حتى
إذا ما حاذى المركب ، بدت له ضخامتها ، ولم يكن قد شاهد
طوال رحلته تلك ، مدينة بهذه الضخامة وهذا الاتساع فدُهل
مما رأى ، وأخذت منه الدهشة كل مأخذ .

ولم يبق (محفوظ) من ذهوله إلا على اهتزاز المركب ،
وهو يرتطم باليابسة ، ارتطاماً رقيقاً لدى رؤسوه عند مرفأ المدينة .

وتحرك رجال المركب في همة ، يُلْقون بالمراسي ، ويشدُّون
حبال السارية ، ويضعون بعض الألواح الخشبية لتكون جسراً
يعبرون عليه إلى أرض الساحل .

ونزل الجميع إلى الأرض ، وودّع صالح رجال المركب وشكرهم ودعا الله لهم بالبركات وحسن الثواب ، ردعاهم لزيارة داره ، ولكنتهم شكروه على دعوته ، ووعدوه بالزيارة في وقت آخر .

وتقدم (محفوظ) بدوره من رجال المركب الخمسة ، فشكرهم على حملهم إياه ، هو وصاحبه ، وعلى إكرامهم له لما أثناء الرحلة ، وما أعطوهما إياه من ملابس ، عِوضاً عن الملابس البالية التي كانت عليهما ، وما هياؤه لهما من حسن الهمدَام والمظهر . ثم ودّعهم بعد ذلك ، ولسانه يلهج بالدعاء الصالح لهم . ووضع صالح يده على يد (محفوظ) ، ومضيا يشقان طريقهما ، إلى بيت صالح .

وأسرعت خطوات (صالح) قليلا ، وهو يقول لمحفوظ مشيراً إلى إحدى الدور ، عند نهاية الطريق :

— هذا هو بيتي يا عبد الله . .

وسكت لحظة ، ثم استأنف :

— وبيتك — يا عبد الله — بإذن الله .

عند ذلك رفع (محفوظ) بصره ، وأخذ ينظر إلى حيث أشار صديقه صالح ، ولم يعقب على حديث صالح إلاّ بقوله :

— الحمد لله الذي أعادك إلى بلدك وإلى أهلِكَ سالماً .

ثم مضى الرجلان ، حتى بلغا باب الدار ، وطرقه صالح برفق .

اجتماع الشمل

ما أن انفتح الباب ، وظهر عند عتبة صالح ، حتى أخذ أبناؤه يتصايحون من داخل الدار ، فرحين بعودته ، ثم اندفعوا نحوه والتفوا به ، وهم ياثمون أطراف ثوبه ويديه ، وقد بُحَّتْ أصواتهم من ترديد عبارات الفرح والسعادة ، والسرور بعودته ، كان بعضهم يبكي ، والبعض منهم يضحك ، بينما وقف البعض الآخر حائراً ، لا يدري ما يفعل ، أما زوجته وابنته الكبرى ، فقد وقفتا كالتمثالين ، وهما في حالة من الذهول ، قد ألبمتهما المفاجأة .

ومضت لحظات ، ثم أخذت البنت تفرك عينيها ، وتنظر في وجه أبيها ، وهي لا تكاد تصدق ما ترى ، بينما وقفت الأم تحدّق في زوجها العائد ، فاعرةً فاهها ، وقد تجمدت فيه الكلمات كأنما تنظر إلى شبح ، أو إلى ميت عاد بعد أن مات .

فقد مضى أكثر من عامين على غياب صالح ، سألت عنه زوجته ، وسأل عنه أهله كلٌّ من يعرفه ، وكلٌّ من يمكن أن يدلهم على مكان وجوده ، بعد أن طال غيابه في تلك الرحلة ، التي خرج فيها بتجارته ، على ظهر مركب ، يجوب البحار ، متقللاً من مدينة إلى مدينة ، يبيع ويشترى .

وكانت رحلته تلك في الماضي — لا تستغرق إلا شهوراً قلائل ، فما إن تمضي ثلاثة أشهر ، أو أربعة ، حتى يعود إلى بلده ، وأهله .

فلما انقضى العام ، ولم يعد ، وسألوا عنه فلم يعلموا عنه شيئاً ، يشوا من عودته ، وقال قائلهم لا بد أن البحر قد ابتلعه ، وأودى بحياته .

وحزنت زوجته ، وحزن أبناؤه ، وأهله ، وأصدقاؤه ، وحزن كل من كان يعرفه ، وكل من تعامل معه في تجارة ؛ فقد كان صالح رجلاً محبوباً ، طيب القلب ، دمث الأخلاق ، نقياً ، صالحاً .

وطال بكاء أبنائه ، وطال حزن أهله على فقدته ، ثم مضت الأيام بعد ذلك عليهم رتيبة ثقيلة ، تحمل كل ساعة من ساعاتها ذكراه التي ما فتئت الأم تُزكّيها في نفوس أبنائها وعقولهم ، تقرئها - دوماً - بما كان عليه أبوهم من سمو خلق ، ونبل ، وصلاح ، حتى باتوا لا يذكرونه إلاً واقتربت ذكراه في نفوسهم بأعظم آيات الإجلال ، والاحترام .

وها هو ذا في تلك اللحظة ، يقف أمامهم بشخصه ، فما كادوا يصدقون .

أما (محفوظ) ، فقد وقف حائراً ، مدهوشاً من كل ما يرى ، لا يكاد يفهم حقيقة تلك العواطف ، وماهيتها ، فهو لم يكن في يوم من الأيام أباً ، أو ابناً لأحد ، ولا كان زوجاً ، أو أختاً لأخت ، أو أخ . لذلك فلم يستوعب عقله عمق ما يدرر أمامه من انفعالات تفيض بها تلك النفوس ، ولا أحست نفسه ، إحساساً حقيقياً بحرارة ذلك اللقاء ، وإلاً لذابت نفسه ، وسالت عبرات ، ولدمنت عيناه ، بل بكى تأثراً مما يرى .

أما أهل الدار ، وقد إنشغلوا بالعائد العزيز ، وأولوه كل

فكرهم وإحساسهم ، واهتمامهم ، فقد نسوا - في غمار كل هذا - ذلك الشاب (محظوظاً) ، الذي ظلّ واقفاً طوال ذلك الوقت ، وربما انشغل بهيكل الغرفة التي يدخلها لأول مرة ، وتلك الأشكال المتباينة لتلك المجموعة من الناس ، وحركات أفرادها أكثر من أي شيء آخر ، فهذا طفلٌ ولدٌ ، وذلك طفلٌ أعتقد أنه أنثى ، وتلك أنثى ، وهذه أنثى أخرى ، أعتقد أنها أكبر سنّاً بكثير من الأخرى ، لعلّها أمها .

وهكذا مضى الوقت ، حتى تنبّه صالح أخيراً للحرج موقف (محظوظ) ، فتحرّك نحوه ، ووقف إلى جواره ، ثم وضع يده على كتفه ، بكل ود وحب ، وكان صخب الجميع قد توقف ، ووقف كل أفراد الأسرة صفّاً واحداً غير منتظم ، في قبالة والدهم وضيّفه ، عند ذلك قال صالح مخاطباً (محظوظ) ، وهو يشير إلى المجموعة التي أمامه :

- هذه هي أسرتي ، التي طالما حدثتلك عنها - يا عبد الله - ، هذه هي زوجتي آمنة ، وهذه ابنتي سمية ، وهذه الصغيرة سلوى ، ويجوارها فاطمة وليلى ، وهذا الصغير هو أحمد ، ويجواره محمد .

ثم استطرد صالح موجهاً الحديث لأسرته ، وهو يربت على كتف (محظوظ) برفقٍ :

- وهذا هو صديقي عبد الله ، الذي التقيت به أثناء غيبتى تلك ، وهو صديقٌ عزيزٌ ، بمثابة الابن والأخ لي .

وصمت صالح فترة من الزمن ، ثم واصل حديثه :

— إن صديقي ، وابني عبد الله ضيفي ، وسيقيم معنا
في الدار ، ليُعيني في عملي إن شاء الله .

عند ذلك تقدم أفراد الأسرة ، الواحد بعد الآخر نحو
(محفوظ) ، فحيوه ، ورحبوا به .
(الأمانة)

مضت الأيام على (محفوظ) ، وهو يقيم مع الشيخ صالح ،
وقد أفرد له الشيخ صالح من بيته جزءاً في مكان قصي من
البيت ، يقضي فيه الليل ، يمضي معظمه في العبادة قائماً راکعاً
ساجداً يتعبّد ويتهجّد .

أما بالنهار ، فكان يُعَمِّمُ العون للشيخ صالح في عمله
وتجارته .

وسرعان ما أحبه أهل المدينة ، من أصدقاء صالح ، وعملائه
فاحترموه ، وقدّروا فيه صلاحه ، ودماثة خلقه ، وحسن
معاملته للآخرين . وأجرى الله على يديه خيراً كثيراً ، ورجحاً
وفيراً ، للشيخ صالح ، فازدهرت تجارته ، وزاد ماله ، وتحسّن
حاله .

أما زوجة صالح ، وأبناؤه وبناته ، فقد وجدوا في (محفوظ)
خير أخ صالح ، تقي النفس ، طاهر السريرة لا يصدر عنه
إلاّ كل ما يرضيهم من فعلٍ أو قولٍ .

وتوالت الأيام والشهور والأعوام ، و (محفوظ) يزداد
كلّ يوم قرباً من قلب صالح ويزداد رفعة وإجلالاً في نفوس
كل من عرفوه .

وأصبح يقوم بمعظم العمل من بيع وشراء ، يحمل العبء

عن (صالح) الذي أخذت صحته في انتدهور ، فضعفت قوته ، ولم يعد يقوى على العمل كما كان في السابق .

حتى كان ذات يوم ، لزم الشيخ صالح فراش المرض لعدة أيام ، فتأثر (محفوظ) لحاله أيما تأثر ، وأشفق عليه إشفاقاً عظيماً ، ورعاه رعاية صادقة ، فكان يسهر الليل إلى جوار فراشه ، لا ينام ، ويشرف عليه بالنهار ، فيقدم له الدواء ، ويقدم له كل عون يحتاجه .

وفي ذات ليلة ، اشتد المرض بالشيخ صالح ، حتى استعصى عليه النوم ، وبذل (محفوظ) كل جهد ليخفف عنه من وطأة آلام المرض ، ويسري عن نفسه المكدودة من أثر السهر ، حتى تهدأ ، فينام ، فأخذ يقص عليه القصص عن طفولته الأولى ، وحياته بين الغزلان ، في الوادي الأخضر ، ويحكى له عن الوادي وما فيه مما لم يشاهده الشيخ ، وعن الأسرار التي أبدعها الله تلك الطبيعة الرائعة ، وما ضمنها من تناسق وكمال ، بحيث يستطيع الإنسان أن يحيا في أحضانها ، فيجد فيها كل مقومات العيش ، فلا يحتاج عوناً من أب أو أم أو معين آخر من بني البشر ، فالله الذي خلق كل هذا الوجود جعل كل ما فيه مرتبطاً ببعضه ببعض ، في أبلغ صورة لوحدة هذا الكون ، تأكيداً لأن الخالق واحد والمدير واحد .

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

الكل يجد فيه رزقه ، ومستقره ، ومستودعه .

وكان (محفوظ) يتلو بين كل آونة وأخرى آية من القرآن الكريم ، دالة على عظمة الخالق المبدع ، جل جلاله :

« هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ »

ثم تتحرك شفتاه بالتسبيح ، ويردد قول الله تعالى :

« الَّذِي خَلَقَ قَسَوَى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى » .

مضى شطرًا من الليل ، والشيخ صالح يسمع لحديث (محفوظ)
فارتاحت نفسه وسكنت له ، واطمأن خاطره ، وذهب عنه
ما كان يعاني من ألم ، فأخذ يشكر (محفوظ) ويثني عليه .

قال له محفوظ :

— إني أحمد الله لك ، على ما أنعم عليك به من عافية ،
فأذهب عنك ما كنت تعاني من ألم ، فم حتى ترتاح مما كنت
تعاني ، وتسكن نفسك ، ويطمئن خاطرك .

قال صالح :

— إن خاطري مطمئن برضاء الله ، ونفسي راضية ساكنة
بأن يسّر لي لقاءك ، والتعرف إليك ، فأنت اليوم نعم العون لي
بعد الله ، ترعى شئونني ، وتحذب علي أسرتي ، فترعاها ،
وتقوم على أمورها في غيابي ، وعندما يقعدني المرض . .

قال (محفوظ) :

— إنَّ هذا أقل ما يتوجبُ عليَّ ، في مقابل ما أوليتني
ليّاه من فضل .

قال صالح :

— ولكن هناك أمرًا يؤرّقني ، ويشغل بالي . .

قال محفوظ : ليتني أستطيع أن أحمل عنك همَّ هذا الأمر .
صالح : إنك تستطيع ذلك . .

قال محفوظ ، وقد تعجب لحديث الشيخ صالح :

— كيف هذا . . يا سيدي . . ؟

وصمت (محفوظ) هنيهة ، ثم استطرد :

— إنك تعلمُ يا سيدي أنني لا أتوانى في بذل أيِّ جهدٍ
من أجلك . . ولو استطعتُ أنْ أحملَ الهمَّ عنك لفعلتُ من
غيرِ إبطاءٍ أو توانٍ .

قال صالح :

— الأمرُ الذي يشغلُّني ، هو ما سيؤول إليه حالُ أسرتي
من بعدي . . . فهلا أتقُ بك . . . في رعايتها من بعدي . . وأن
أزوجهك من ابنتي الكبرى . . ؟

قال (محفوظ) :

— لست أدري ماذا أقول ، وبأيِّ لسانٍ أحمدُ الله تعالى
الذي أكرمني بمعرفتك . . فكانت هدايته لي — سبحانه — على
يديك ، وكانت معرفتي بذاتي عن طريقك ، وها أنت ذا — اليوم —
تعرض عليَّ أمراً عظيماً . . ونُلقي على عُنقي معروفاً ، تُطوقني
به . . على الرغم من علمك بمنشأ حياتي ومبتدأها . .

قال صالح ، وهو يحاول أن يعتدل جالساً في فراشه :

— ليس في منشئك — يا عبد الله — ما يُضيرك ، وليس في
مبدأ حياتك ما يعيب مسارها ، ومنتهاها . . .

ولقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :
(إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه) . .

وأنت يا بُني من أرضي دينه وخلقه ، وأنت من يطمئن له
قلبي ، فأزوجه ، وأستخلفه في أهلي ، إذا ما توفاني الله ، أو
ألمت بي شائبة من شوائب الدنيا .

وسقطت دمعته من عين (محفوظ) وسالت على خدّه ،
بينما كانت شفاته تُرددان الحمد لله ، والشكر .

قال صالح ، وهو يضع يده على يد (محفوظ) :

— أنت يا بني هبةٌ وهبني إياها الله تبارك وتعالى ، وقربك
من أسرتي ، واقترانك بابنتي نعمةٌ من الله وفضلٌ . . .

قال (محفوظ) ، وقد احتبس صوته ، أو كاد :

— بل هي نعمةٌ وفضلٌ آخرٌ من أفضال الله عليّ ، الذي
لا تُحصى نِعَمُهُ ، ولا تنتهي عند منتهى أفضاله . . ولا تَنفَدُ
خزائنه .

كان يوماً مشهوداً في حياة (محفوظ) ، يوم أن دعا الشيخ
صالح بعض أصدقائه من أفاضل أهل المدينة إلى داره ، فأولمَ
لهم وليمةً ، وأشهدهم على عقد زواج (محفوظ) من ابنته .

وكان الكلُّ في سرور وسعادة ، فقد أحبَّ جميعُ أهلِ
المدينة (محظوظاً) لخلقه السامي الرفيع ، ولشهامته وأدبه ،
واحترامه لصلاحه وتقواه ، وحبّه للخير ، ففرحوا لفرحه
بزواجه ، وسعدوا لسعادته .

ومضت الأعوام بعد ذلك - على (محفوظ) ، وقد أصبح زوجاً لابنة الشيخ صالح ، التي كانت له نعم الزوجة الصالحة ، وصار بها ذلك أباً لطفلين ، أحدهما ولدٌ والأخرى بنتٌ ، أطلق على الولد اسم (صالح) ليكون صالحاً ، وليكون ذلك يُمناً وخيراً إذ يحملُ اسماً تسمّى به جدّه ، وفي ذلك وفاءٌ له أيضاً . وأطلق على البنت اسم (زينب) .

أما الشيخ صالح ، فقد تقدم في العمر ، وأوهن جسمه المرض ، حتى كان يوماً ، اشتدّ فيه عليه المرضُ فأرسلَ في طلب (محفوظ) .

فلما حضرَ (محفوظ) ، وجلس إلى جواره ، أوصاه الشيخ بأسرته خيراً ، ثم ما لبث أن أسلم الروح لبارئها ، ومات . حزِنَ (محفوظ) لموت الشيخ (صالح) ، حُزناً شديداً ، وكان يجلس دائماً في معزل من الناس ، يتذكّر ، ويستعيدُ في ذهنه ما فعل ذلك الرجل النبيل من أجله ، وكيف حفظ ذلك السرّ عن نشأته ، حتى دُفِنَ معه .

وبعد شهور قلائل ، عادت الحياة في بيت الشيخ (صالح) إلى سابق حالها ، وقد أصبح (محفوظ) نعم العون للجميع ، يحنو على الصّغير من أبناء الشيخ صالح ، ويواسي أمهم ، ويستجيب لكل ما تطلب منه ، فهو لها بمنزلة الابن ، كما كان وفياً لزوجته ، عطوفاً على أبنائه .

أما التجارة التي خلقه عليها الشيخ صالح ، فقد ازدهرت ، واتسعت ، وصار (محفوظ) من أشهر تجار المدينة ، وأحسنهم سيرة ، وأوفرهم ثقة .

كَبُرُ (صالح) الصغيرُ ، ابن (محفوظ) ، وأصبحَ شاباً
يافعاً قوياً ، يعمل مع والده في تجارته ، وأعماله الأخرى ،
يتبعه في غدواته ، وأوباته ، ويُعينه في كلِّ أمرٍ .

وفي ذات يومٍ ، وبينما كان (محفوظ) ، يمضي ، مخترقاً
سوق المدينة ، يتبعه ابنه صالح ، يسير في أثره ، إذ توقف فجأةً ،
عن المسير ، وكأنما تبيّست قدماه ، وشكّلت ساقاه ، وأخذ
يحقد في رجل كان يقفُ على مسافةٍ قريبةٍ منه ، يحملُ بين
يديه ، وعلى ذراعيه غزالاً ، يعرضُه للبيع .

وطالت وقفة (محفوظ) ، وطال تحديقُه في الغزال والرجل
الذي يحمله ، فتقدّم نحوه ابنه (صالح) ، وقال له بأدبٍ
واحترامٍ :

— هل أعجبك هذا الغزال يا أبي . . ؟

فلما لم يُجب (محفوظ) ، واصل (صالح) الشاب حديثه :

— إنّه — فعلاً — غزالٌ جميل المنظر ، لعلَّ صاحبه
يبيعه بثمانٍ معقول . . . هل نبتاعه منه يا أبي . . ؟

ولم يستطع (محفوظ) من فرط انفعاله ، أن يُجيب على
سؤال ابنه ، وخشي أنّه لو فتح فمه ، أن تنفجر عواطفه ،
ويخذلّه تماسكُه ، فينهارُ ، ويبكي ، فقد مرّت بذهنه — في
تلك اللحظة — كلُّ صورِ الماضي منذ أن التقى بتلك الغزالة الأم
ووليدها ، ثم حياته بعد ذلك مع قطيع الغزلان في الوادي الأخضر .

وأعاد ابنه السؤال مرةً أخرى :

— هل نبتاعه — يا أبي ؟

عند ذلك حرك (محفوظ) رأسه إيجاباً — عدة مرات .

وكان هذا كافياً لابنه (صالح) ، إذ مضى من فوره إلى الرجل ، صاحب الغزال ، فابتاعه منه ، ولعله دفع له ما طلب من ثمن ، من غير جدل ، أو أخذ وعطاء ، لإرضاء لوالده ، وتحقيقاً لرغبته ، من غير أن يعلم سر تلك الرغبة .

وعاد (صالح) الشاب ، يحمل الغزال ، وناولوه لوالده الذي ما كاد يتسلمه ، حتى احتضنه ، وضمه إلى صدره ، وأخذ يقبله ، وقد جاشت نفسه بكل عواطف الحب ، والحنين ، وسالت الدموع من عينيه .

وقف صالح يرقب والده ، وهو يعجب من كل ما يرى ، ولا يكاد يفهم لكل ذلك معنى ، أو يجد له تعليلاً ، وأخذ عقله يعمل بكل خاطرة تخطر له ، وما عسى أن يكون السبب في كل ما يحدث من والده ، ولم يتنبه إلا على خطوات والده السريعة ، وهو يتحرك ماضياً في اتجاه غير الاتجاه الذي كانا يمضيان فيه أول مرة .

لم يملك صالح إلا أن يسرع الخطى خلف والده الذي كان يسير مسرعاً ، يكاد يهرول . . وهو يحمل الغزال بين ذراعيه .

واخترق (محفوظ) السوق حتى تجاوزه ، يتبعه ابنه ثم مضى فتجاوز أيضاً كل دور المدينة ، وعمرانها ، حتى بلغ نهايتها ، وغدً في السير حتى بلغ موضعاً فضاء خارج المدينة .

حدث كل هذا ، ولم يجرؤ (صالح) على سؤال والده عن وجهته ، أو مقصده ، حياءً ، وتأدباً .

وتوقف (محفوظ) فجأة ، وانحنى على الأرض ، وأنزل
الغزال ، ثم قبله ، وأطلق سراحه .

مضت فترة بعد ذلك ، و (محفوظ) يقف ، وقد سالت
دموعه على خديه ، وهو يراقب الغزال ، حتى ابتعد ، واختفى
بين الأحراش .

وعند ذلك ، سأله ابنه صالح ، وهو في تعجب ، ودهشة ،
بما رأى :

— لماذا أطلقت سراح الغزال ، يا أبي ؟

ولكن محفوظاً لم يُجب ، أول الأمر على سؤال ابنه ،
بل أمسك بيده ، ومضى به نحو صخرة قريبة ، عند شجرة
ظليلة ، فأجلسه ، وجلس إلى جواره ، ثم قال له :

— هناك يا بني سرٌّ عظيم ، أحمله في نفسي ، لا يعلمه
إلا الله ، ثم جدُّك الشيخ صالح عليه رحمة الله .

واعتقد صالح ، أن أباه لم يسمع السؤال الذي وجهه إليه ،
في أمر الغزال ، فكرر السؤال مرة أخرى :

— لماذا أطلقت سراح الغزال يا والدي ؟

قال (محفوظ) :

— إن أمر هذا الغزال يا بني ، مرتبط بهذا السر الذي
سأرويه لك ، على أن تكتمه ، فلا تُفشيهِ لأحد كائنًا من كان
إلا بعد وفاتي .

وحكى (محفوظ) لابنه كل حكايته ، وقصة نشأته بين
الغزلان في الوادي الأخضر ، وكيف التقى به الشيخ صالح .

وقال (محفوظ) في آخر حكايته لابنه :

- . . . ما حكيت لك - يا بني - كل هذا ، إلا لتعلم مبلغ نبل جديك الشيخ صالح ، وفضله - بعد الله - علي .
عند ذلك ، نهض صالح ، وقبل رأس والده ، وقبل يديه ، وهو يقول له :

- إن قصتك - يا والدي - لم تترك في نفسي سوى التقدير لك ، والإكبار والإجلال لشخصك ، ولم يزدني هذا اليوم إلا احتراماً لك ، على احترامي وحباً وتقديراً ، لنبل خلقك ، ووفائك لجدي الشيخ صالح ، ووفائك للغزلان ، أهل الوادي الأخضر ، بتكريمك لهذا الغزال ، وفك أساره ، وإطلاق سراحه .

أما هذا السر ، وتلك القصة ، فلن يعلم بها أحد - إن شاء الله - وإني لأطلب من الله لك طول البقاء وسأروها لأبنائي ، بعد أن أسطرها كتاباً للأجيال ، تحكي قصة وفاء « ابن الوادي الأخضر » .

وجزى الله جدي الشيخ صالح كل خير ، على ما هداك بفضل الله للإيمان ، وأحسن ثوابه ، إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

(تمت)

الفهرس

٣	مقدمة
٥	مقدور وعناية
١٠	الوادی الأخضر
١٢	في الوادی الأخضر
٢٥	نحو الصخور
٢٧	الصغير المفقود
٣٥	داخل الكهف
٤٣	الصاعقة
٤٩	الزائر
٦٥	الصلاة
١٠٧	العمل في صنع المركب
١١٦	في المدينة
١١٩	اجتماع الشمل

صدر من هذه السلسلة

- ١ - تأملات في سورة الفاتحة/ للدكتور حسن باجودة .
- ٢ - الجهاد في الاسلام مراقبه ومطالبه / للأستاذ أحمد جمال .
- ٣ - الرسول (ص) في كتابات المستشرقين /٠٠ / للأستاذ نذير حمدان .
- ٤ - الاسلام الفاتح / للدكتور حسين مؤنس .
- ٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكرى للعالم الاسلامى / للدكتور حسان محمد حسان .
- ٦ - السيرة النبوية فى القرآن الكريم / للدكتور عيد الصبيور مرزوق .
- ٧ - التخطيط للدعوة الاسلامية / للدكتور على محمد جريشة .
- ٨ - صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الاسلامية / للدكتور أحمد السيد دراج .
- ٩ - التوعية الشاملة فى الحج/ للأستاذ عبدالله بوقس .
- ١٠ - الفقه الاسلامى افاقه وتطوره / للدكتور عباس حسنى محمد
- ١١ - لمحات نفسية فى القرآن الكريم / للدكتور عبد الحميد محمد الهاشمى
- ١٢ - السنة فى مواجهة الأباطيل / للأستاذ محمد طاهر حكيم .

دار الإصمعياني للطباعة بحدة
رقم الترخيص ١٨ ص - ٤/٥ / ١٣٩٣ هـ

حياة المؤلف في سطور

- خريج كلية الفنون الجميلة والتطبيقية بالخرطوم (السودان) .
- ولد في السودان سنة ١٩٣٤ م .
- معلم سابق من سنة (١٩٥٨ - ١٩٧٤ م) .
- معد برامج ثقافية بتلفزيون وإذاعة السودان الى سنة ١٩٧٤ م .
- سكرتير تحرير مجلة الخليج بالسودان من سنة (١٩٧٤ - ١٩٧٧ م) .
- يعمل - حاليا - محررا بجريدة « المدينة المنورة » السعودية .
- له أكثر من ثلاث وعشرين كتيباً للأطفال ، والناشئة ، والشباب من أهمها كتاب (الرحلة المقدسة) .
- عضو اتحاد الأدباء السوداني .
- حائز على جائزة الدولة للآداب والفنون لعام ١٩٨٠ م من السودان .